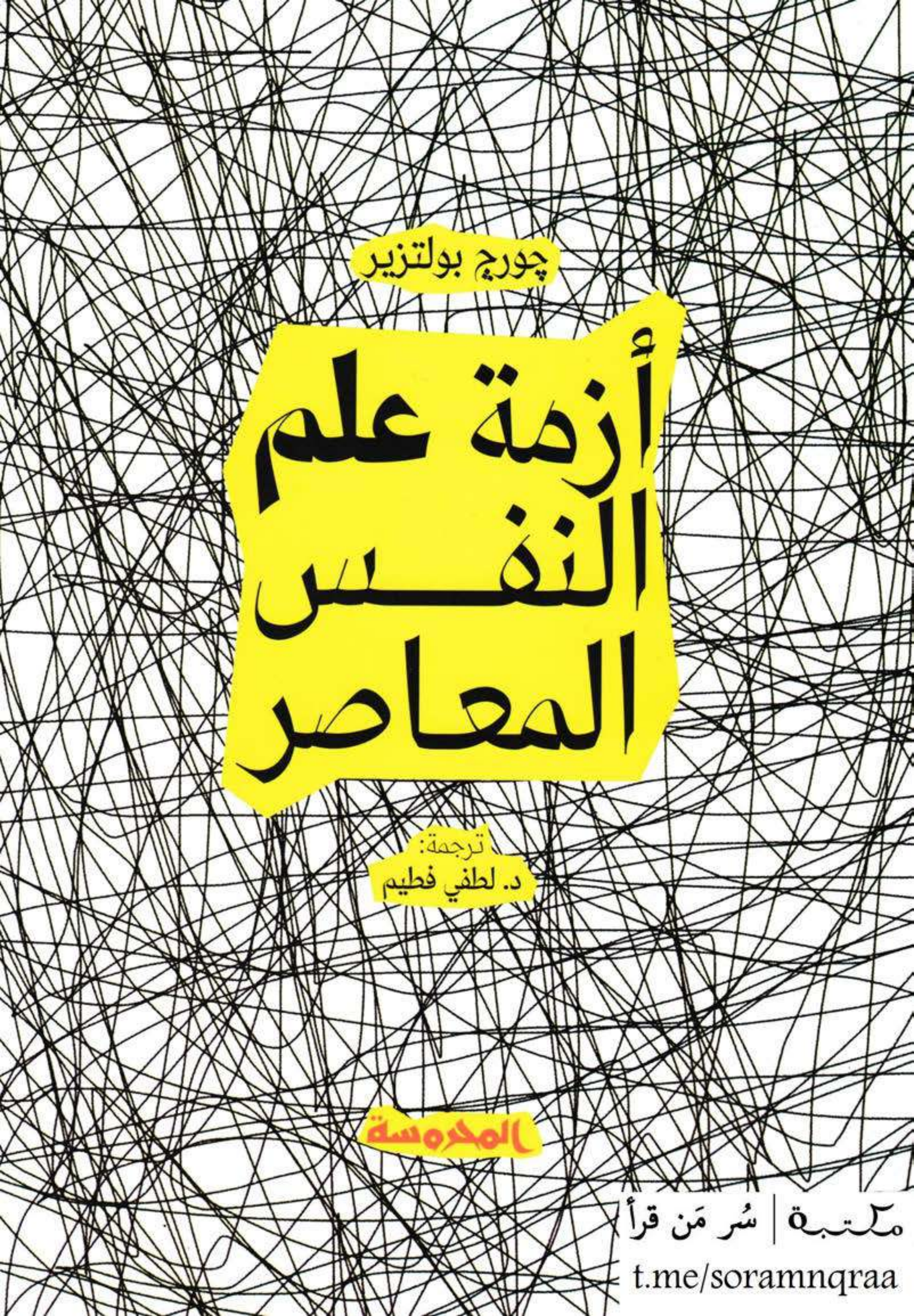

چورج بولتزير
أزمة علم النفس المعاصر
ترجمة:
د. لطفي فطيم
المحروسة
مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa



أَزْمَةُ عِلْمِ النَّفْس المُعاصِر

عنوان الكتاب: أَزْمَةُ عِلْمِ النَّفْسِ المُعاصِر
LA CRISE DE LA PSYCHOLOGIE CONTEMPORAINE
المؤلف: چورچ بولتزير Georges Politzer
ترجمة: د. لطفي فطيم
مراجعة لغوية: محمود شرف



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٨٢٥٥/ ٢٠٢١
الترقيم الدولي: 978-977-313-882-0

مكتبة | سُر مَن قرأ

أَزمَةُ عِلْمِ النَّفْس المُعاصِر

چورج بولتزير

ترجمة
د. لطفي فطيم

الطبعة الأولى 2022



دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

بولتزير، چورچ، 1903-1942

أَزْمَةُ عِلْمِ النَّفْس المُعاصِر/ چورچ بولتزير؛ ترجمة: لطفي فطيم.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

115 ص؛ 17×24 سم

تدمك 978-977-313-882-0

1 - علم النفس

أ-فطيم- لطفي (مترجم)

ب- العنوان

150

رقم الإيداع 2021/28255



المحتويات

مُقدّمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة عام 1968، ونَفَدَت بسرعة. واليوم تعيد دار "شهدي" إصدارها، وهو أمر طبيعيٌّ؛ فهذه الدار التي قامت لتخليد ذكرى المناضل المصري شهدي عطية الشافعي، الذي قُتِلَ ضَربًا بالعِصيِّ في سجون عبد الناصر عام -1960 لا بُدَّ أن تنشر كتاب "بوليتزر" الفيلسوف والمناضل الفرنسي الذي أعدمه الفاشست الألمان عام 1940.

وقد وقع في يدي منذ بضع سنوات كتابٌ آخر بنفس العنوان، أي "أزمة علم النفس المعاصر"؛ فظننتُ لأول وهلة أن بعض الناشرين قد سَطَا على كتابي وأعاد طباعته دون علمي، ولكني سرعان ما اكتشفتُ أن مترجم الكتاب هو الدكتور سيد عثمان، الأستاذ بكلية التربية بجامعة عين شمس، وأن مُؤلِّفه هو الدكتور "چيمس ديز" (وبالمناسبة لا يكتب المؤلِّفون الأجانب عادة -مهما عَلَا شأنهم- أمام أسمائهم لقب دكتور)، أحد أساتذة كلية التربية بجامعة لندن، وأن العنوان الأصليَّ للكتاب هو "Psychology associonce art"، أي: "علم النفس بوصفة فنًّا وعِلمًّا"، ولكن المترجم فضَّل اختيار هذا العنوان المثير؛ ممَّا يوحي بإحساسة

الشخصي بأزمة علم النفس، وأغلب الظن أنه لم يَطَّلِع على كتاب "بوليتزر"؛ فهو أكثر اهتمامًا بما يُسمَّى "علم النفس الإسلامي".

والفرق بين الكتابين: أن كتاب "بوليتزر" هو نقدٌ للأساس الفلسفي المثالي لعلم النفس، وتقديمٌ لوجهة نظر جديدة، يرى "بوليتزر" أنه يجب على علم النفس اتِّباعها إنْ هو أراد أن يكون عِلمًا فعليًّا، وهي ما سمَّاها بعلم النفس العَيانِيِّ "concrete psychologic"، أي الذي يتناول الحياة المُعاشَة الفعليَّة الملموسة للإنسان بدلًا من الأفكار المجرَّدة التي لا تنطبق على أحد بالذات وذلك من منظور فلسفيٍّ ماديٍّ جَدَليٍّ. أمَّا الكتاب الذي ترجمة د. سيد عثمان فهو ينقد المناهج وأساليب العمل التي يتبعها علم النفس. والفارق الآخر أن كتاب "بوليتزر" صدر لأول مرة عام 1929، أمَّا كتاب "ديز" فقد صدر عام 1972. وقد سبق لـ "بوليتزر" أنْ أصدر كتابًا آخر في نفس الموضوع، عنوانه "نَقْدُ أُسُسِ عِلْمِ النَّفْس"، عام 1928.



ما أهميَّة كِتابِ "بوليتزر"؟

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى كَونِه إضافَةً نظريَّةً لا يستطيع أي مشتغل بعلم النفس أن يهملها، ولكن للأسف لا نجد لها ذِكرًا في كتب علم النفس الأمريكية والبريطانية؛ وذلك لكراهية أصحاب علم النفس الأمريكي لوجهات النظر التي تستند إلى الفلسفة المادية الجدلية لأسباب لا تخفى على فطنة القارئ. وقد اعتمد المشتغلون بعلم النفس في البلاد العربية على النقل من المصادر الإنجليزية والأمريكية نقلًا مُباشِرًا، بحيث يمكن القول إن ما يوجد من علم نفس في البلاد العربية هو "علم نفس الخواجات"، أي علم النفس الذي يتناول سُلوكَ ومُعتَقَداتِ ومَشاكِلَ المُجتمعاتِ الغربية، والإنسان الغربي، والذي لا ينطبق علينا؛ نحن أبناء الوطن العربي، إلَّا إذا كان هناك ما يُسمَّى بالطبيعة الإنسانية أو النفسية الواحدة للبشر جميعًا، وهو افتراضٌ لم تثبت صِحَّتُه؛ فمعظم المُنظِّرين في مجال الشخصية يعتبرون أنَّ الإنسان نِتاجُ بيئَتِه، وأن عنصر الثقافة والتوصية له أكبر الأثر في تكوين نفسيَّة الإنسان وعقله. وعندما نتحدَّث عن "العقل العربي" أو عن "الثقافة العربية" فإننا نَصْدُرُ -سواءٌ صرَّحنا بذلك أم لم نُصرِّحْ- عن موقفٍ يُسلِّم

بوجود "عقل" و"ثقافات" أخرى، يتحدَّد بالمقارنة معهما العقلُ والثَّقافةُ اللَّذان نتحدَّث عنهما؛ هذا شيءٌ لا مَفَرَّ منه إذًا: "بِضدِّها تتميَّز الأشياء"؛ فعندما نتحدث عن "العقل العربي" فنحن نُميِّزه في نفس الوقت عن "العقل الغربي".

ويتحدَّد نظام كل ثقافة -كما يقول "كوسدورف"- تبعًا للتصوُّر الذي تُكوِّنه لنفسها عن الله، والإنسان، والعالَم، وللعلاقة التي تقيمها بين هذه المستويات الثلاثة من نظام الواقع، فالثقافة الغربية اليونانية عندها أن العقلَ يَحْكُمُ العالَمَ؛ ذلك لأنَّ العقل -بمعنى النظام- هو أساسها، وأن مَن ينظر إليها بعين العقل لا يرى فيها إلَّا العقل. ومن هنا كان العقل في التصوُّر اليوناني الأَرِسْطِيِّ هو "إدراك الأسباب"، وفي هذا الاتجاه نفسه سارت الفلسفة الحديثة في أوروبا. وسواء نُظِرَ إلى هذا العقل على أنه قائم بذاته، مُستَقِلٌّ عن فكرة "الله"، أو نُظِرَ إليه على أنه هو "الله" ذاته؛ فإن العلاقة بينه وبين نظام الطبيعة تبقى علاقةَ مُطابَقَةٍ. ولقد انعكس هذا التصوُّر حتى على اللُّغَة، فنجد في اللغات الأوربيَّة ذات الأصل اللاتينيِّ أن كلمة "Raison" الفرنسية، و"Reason" الإنجليزية تعنيان في آنٍ واحد: العقل والسَّبب. وعلى الرغم من التطوير الهائل الذي عرفه العقل الغربي منذ "هيراقليطس" إلى اليوم، فإن هناك ثابتين اثنين ينتظمان خَطَّ سير ذلك التَّطوُّر، ويُجدِّدان -بالتالي- بِنيَةَ العقل في الثقافة الإغريقية الاوروبية، هذان الثابتان هما:

(1) اعتبار العلاقة بين العقل والطبيعة علاقة مباشرة.

(2) الإيمان بقدرة العقل على تفسيرها والكشف عن أسرارها.

الثَّابِتُ الأَوَّلُ يؤسِّس وجهةَ نظرٍ في الوجود، والثاني يؤسِّس وجهةَ نظرٍ في المعرفة.

المطابقة بين العقل ونظام الطبيعة، والقول بأن العقل يكتشف نفسة في الطبيعة، ومن خلال التعامل معها؛ ثابتان أساسيان في بنية الفكر الغربي، اليوناني، الأوروبي. ولننظر إلى الحال التي عليها "العقل العربي"؟

سنلاحظ أوَّلًا أن ما يُميِّز العقل العربي بوصفه عقل الثقافة العربية الإسلامية هو أن العلاقات داخله تدور حول ثلاثة أقطاب: الله، والإنسان، والطبيعة.

وإذا أردنا تكثيف هذه العلاقة حول قطبين اثنين فقط كما فعلنا بالنسبة للعقل اليوناني الغربي؛ وجب أن نضع في أحدهما "الله"، وفي الآخر "الإنسان"، أمَّا

الطبيعـة فـلا بُـدَّ في هـذه الحالـة مـن تسـجيل غيابهـا النسـبي، بنفس@(هـذه العبـارة مفقـودة مـن النسـخة، وتمـت إضافتهـا بالرجـوع للبـي دي إف) الدرجـة التـي سَـجّلنا بهـا غيـاب "اللـه" في بنيـة العقـل اليونـاني الأوروبي. بـل ويمكـن القـول إن الـدور الـذي تقـوم بـه الطبيعـة في الفكـر العـربي، هـو دَوْرُ الوسـيط، أو القنطـرة: إذ توظـف فكـرة "اللـه" مـن أجـل تبريـر مُطابَقَـة قوانـين العقـل لقوانـين الطبيعـة، وبالتـالي مـن أجـل إخفـاء المصداقيـة عـلى المعرفـة، أي جعلهـا يقينيـة. بعبـارة أخـرى: تقـوم فكـرة "اللـه" بـدور "المُعين" للعقـل البـشري عـلى اكتشـاف نظـام الطبيعـة واكتنـاه أسرارهـا.

أمَّـا في "العقـل العـربي" -كـما تَشـكَّل داخـل الثقافـة العربيـة الإسـلامية- فالطبيعـة هـي التـي تقـوم بـدور "المعـين" للعقـل البـشري عـلى اكتشـاف "اللـه"، وتَبَـيُّن حقيقتـه، كـما يقـول الشـاعر:

تِلْكَ الطَّبيعَةُ.. قِفْ بِنا يا ساري حَتّى أُريكَ بَديعَ صُنْعِ الباري

في الثقافـة العربيـة الإسـلامية يُطلَـب مـن العقـل أن يتأمَّـل الطبيعـة ليتوصَّـل إلى خالقهـا: "اللـه"، أمَّـا في الثقافـة اليونانيـة- الأوروبيـة يتَّخِـذُ العَقـلُ مـن "اللـه" وسـيلةً لفهـم الطبيعـة.

وإذا كان مفهـوم العقـل في الثقافـة اليونانيـة الحديثـة والمعـاصرة يرتبـط بـإدراك الأسـباب (أي بالمعرفـة)، فـإن معنـى "العقـل" في اللغـة العربيـة -وبالتـالي في الفكـر العـربي- يرتبـط أساسًـا بالسـلوك والأخـلاق. ولا يظـن أحـدٌ أنَّ مفهـوم "العقـل" في الثقافـة الأوروبيـة اليونانيـة لم يمتـد إلى الأخـلاق، أو أنـه في الثقافـة العربيـة الإسـلامية لم يمتـد إلى المعرفـة، ولكـنْ هنـاك فـارقٌ كبـير بـين الاتجـاه مـن المعرفـة إلى الأخـلاق، والاتجـاه مـن الأخـلاق إلى المعرفـة. في الحالـة الأولى -وهـي حالـة الفكـر اليونـاني الأوروبي- تتأسّـس الأخـلاق عـلى المعرفـة، أمَّـا في الحالـة الثانيـة -حالـة الفكـر العـربي- فتتأسَّـس المعرفـة عـلى الأخـلاق. إن المعرفـة -في حالـة الثقافـة العربيـة- لا تكـون اكتشـافًا للعلاقـات التـي تربـط ظواهـر الطبيعـة ببعضهـا البعـض، لا تكـون عمليّـةً يكتشـف العقـلُ فيهـا نفسـه مـن خلالهـا في الطبيعـة، بـل تكـون التمييـزَ في موضوعـات المعرفـة، حِسِّـيَّةً كانـت أو اجتماعيَّـة، بـين الحَسَـن والقبيـح، بـين الخـير والـشر. ومَهَمَّـة العقـل ووظيفتـه، بـل وعلاقـة وجـوده، هـي حـثُّ صاحبـه عـلى السـلوك الحَسَـن، ومنعـه مـن إتيـان القبيـح.

ويتَّضح هذا المعنى في مختلف الدلالات التي يتطلَّبها القاموس العربي لمادة "عقل" حيث يكاد يكون الارتباط بين تلك الدلالات وبين السلوك الأخلاقي عامًّا وضروريًّا، بل ويتضح كذلك في جميع الكلمات التي ترتبط معها بنوع من القرابة في المعنى، مثل: "ذهن" و"نُهَى" وحِجا"... وجاء في "لسان العرب": "وسُمِّي العقل عقلًا لأنه يَعْقِلُ صاحِبَه عن التَّورُّط في الهلاك؛ أي يَحْبِسُه. والنُّهى جَمْعُ نهيَّة، والنَّهيَّة تنهى عن القبيح"... إلخ. أمَّا في القرآن فإننا سنجد هذا المعنى القِيَميَّ المرتبط بكلمة "عقل" -وما في معناها- يُعبِّر في الأغلب الأعَمِّ عن التمييز بين الخير والشر، وبين الهداية والضلال. ولعلَّ ممَّا له مغزاه في هذا الصَّدَد أن القرآن لا يستعمل مادَّة "عقل" في صيغة الاسم، فلفظة "العقل" لم تَرِدْ قَطُّ في القرآن، وإنما وَرَدَت في صيغة العقل في معظم الحالات، أي أن العقل أداةٌ للتميز بين الخبيث والطيب؛ فالقرآن يؤنِّب المُشرِكين لكونهم لا يُمَيِّزون بين الحق والباطل (بالمعنى الأخلاقي): "لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (الأعراف، آية 179). ونجد هنا "القلب" و"العقل" بمعنى واحد، والمغزى القِيميُّ واضِحٌ. وفي نفس هذا المعنى وَرَدَت الآية التالية: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]. وهناك آياتٌ أخرى تربط بين العقل والهداية والمسؤولية، من ذلك: الآية التالية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

صحيحٌ أننا يمكن أن نلمس من خلال الدلالات المختلفة لكلمة "عقل"، والكلمات الأخرى التي في معناها: ما يمكن ربطه بالنظام والتنظيم، ولكن حتى في هذه الحالة يظلُّ الجانب القيمي حاضِرًا دومًا؛ فالنظام والتنظيم في المجال التداولي للكلمات العربية المذكورة يتَّجه دومًا إلى السلوك البشري، لا إلى الطبيعة وظواهرها. ومن هنا يمكن القول إن "العقل" في التصوُّر الذي تنقلة اللغة العربية المعجميَّة يرتبط دائمًا بالذات، وحالاتها الوجدانية، وأحكامها القِيميَّة؛ فهو في نفس الوقت: "عقل" و"قلب" و"فكر" و"وجدان" و"تأمُّل"، و"عبرة"... أما في التصور الذي

(1) [الأنفال: 22]

(2) [البقرة: 170 - 171]

تنقلـه اللغـات الأوروبيـة فالعقـل مرتبـطٌ دومًـا بالموضـوع؛ فهـو إمـا نظـام الموجـود، وإمـا إدراك هـذا النظـام، أو القـوه المُدرِكـة.

ومـن كل مـا سـبق، نكـون -مـن الناحيـة المبدئيـة عـلى الأقـل- في وضـع يسـمح لنـا بالقـول إن "العقـل العـربي" -وبالتـالي الثقافـة العربيـة والشـخصية العربيـة- تحكمـه النَّظـرةُ المِعياريَّـةُ للأشـياء، ونقصـد بالنظـرة المعياريـة: ذلـك الاتجـاه في التفكـير الـذي يبحـث عـن مكانهـا وموقعهـا في منظومـة القيـم التـي يتَّخذهـا ذلـك التفكـير مرجعًـا لـه ومُرتكَـزًا. وهـذا في مقابـل النظـرة الموضوعيـة التـي تبحـث في الأشـياء عـن مُكوِّناتهـا الذاتيـة، وتحـاول الكشـف عـمَّا هـو جوهـري فيهـا. إن النظـرة المعياريـة نظـرة اختزالية، تختـصر الـشيء في قيمتـه وبالتـالي في المعنـى الـذي يُضفيـه عليـه الشـخصُ، أو المجتمـع والثقافـة أصاحـب تلـك النظـرة، أمَّـا النظـرة الموضوعيـة فهـي نظـرة تحليليـة تركيبيـة، تُحلِّـل الـشيء إلى عنـاصره الأساسـية؛ لتعيـد بنـاءه بشـكل يُـبرِزُ مـا هـو جوهـري فيـه. بعبـارة موجـزة: العقـل عندهـم مُرتَبِـطٌ بالبحـث في الأسـباب، والعقـل عندنـا مرتبـط بالبحـث في الأخـلاق.

ولقـد لخَّصنـا خـلال الفقـرات السـابقة الاجتهـادَ النظـريَّ للمفكِّـر المغـربي محمـد عابـد الجابـري[1] حـول مسـألة فهـم الشـخصية العربيـة، أو أصـول العقـل العـربي ندلـل بهـا -أوَّلًا-: عـلى الـدور المحـدود "لعلـم نفـس الخواجـات" في فهـم نفسـية الإنسـان العـربي، وثانيًـا: عـلى أهميـة التفكـير النظـري الخَـلَّاق في علـم النفـس، واسـتنادًا إلى ذلـك نجـد أنـه مـن الصعـب اسـتخدام التطبيـق الغـربي لعلـم النفـس في مجتمعاتنـا. ولا يعنـي هـذا الـكلام ألَّا نسـتفيد مـمَّا يُعلِّمُنـا الغـربُ إيَّـاه، بـل يجـب أن نُفيـدَ منـه، ونضيـف إليـه، وأكـرِّر: نضيـف إليـه؛ فبـدون هـذه الإضافـة (أي الابتـكار النظـري، لا الإحصـاءات ومعامـلات الارتبـاط، وتدويـر المحـاور، ومـا شـابَهَ مـن فنـون اللعـب بالأرقـام) الصـادرة عـن الفهـم الأصيـل للواقـع؛ يظـلُّ علـم النفـس غريبًـا عنَّـا.

ولا يفوتنـي أن أذكـر أن هنـاك المئـات مـن بحـوث الماجسـتير والدكتـوراه وغيرهـا في مجـال علـم النفـس، ومعظمهـا بحـوث ميدانيـة، ولكـن -للأسـف- يبـدو أن بهـا شـيئًا مـا يجعلهـا غـيرَ قابِلَـةٍ للتطبيـق، أو أن يسـتفيد منهـا أحـد. وأغلـب ظَنِّـي أن هـذا الاغـتراب عـن الواقـع النفـسي للمواطـن العـربي هـو السـبب في عـدم فاعليـة

(1) دكتور محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، دار الطليعة ببيروت، الطبعة الثانية، 1985.

المشتغلين بعلم النفس في الحياة العامة، في حين تَبوَّأ غيرُهم من خِرّيجي الكليات العسكرية وغيرها المواقِعَ الهامَّة في المجتمع. وهناك طبعًا أسباب أخرى لذلك "الانطواء"، ليس هذا هو مجال عرضها.

مربط الفرس إذًا هو العجز عن تقديم مساهمات نظرية، أو الخوف من القيام بهذه المحاولات، وبدون تقديم نظرية -أو نظريات- عربية في علم النَّفس سنظل على هذا الحال. يقول المفكر المغربي عبد الله العروي[1]: "إنَّ مَوقِفَنا اليومَ يتلخَّص في رفض تُراثَيْن: تُراثِ الثقافة المُسيطِرَة على عالَمِنا الحاضر، التي تَدَّعي العالَميَّة والإلماميَّة، وتَعرِضُ نَفسَها علينا إلى حَدٍّ الإلزام والضَّغط، ولا تفتح لنا بابًا سوى بابِ التَّقليد، أو الاعتراف بالقصور- وتراث ثقافة الماضي، الذي اخترناه تعبيرًا لنا في عهودنا السابقة، لكنه لم يَعُدْ اليومَ يُعبِّر عن جميع جوانب نفسيَّاتنا. نحن مُطالَبون بنهجِ طَريقٍ ثالِثٍ مَبنيٌّ على التجربة والمُخاطَرَة، ولكن دون هذه الغايةِ شروطٌ، هي: الوَعي، ومعرفة الثقافة المعاصرة مَعرِفَةً دقيقَةً، والاطِّلاع على مُعطَياتِ تجربتنا التاريخيَّة".

ولعل الخطوة الأولى في تقديم المفاهيم النظرية هي الموقف الانتقادي الذي لا يكتفي بإظهار الجوانب المتفسِّخة في الحضارة العربية، وإنما يدرك أيضًا ضرورة انتقاد الذات، وهذا الموقف الجدليُّ سيؤدِّي بالقَطْعِ إلى طرح التساؤلات الفلسفية الأولى: ما الوجود، ما الزَّمان، ما الإنسان... إلخ. وذلك في إطار الخصوصيَّة الثقافية، وهذا الموقف هو الذي يؤدِّي إلى ظهور الإبداع الثقافي المطلوب. وسبق لنا أن تناولنا هذا الموضوع في عرضنا لموضوع حركة "رَدِّ الطِّبِّ النفسي" "Anti psychatry" في أوربا، حين قلنا إنه رغم أن الاضطرابات النفسية ذات طبيعة شاملة، فإن الأشكال التي تتَّخذها، والطريقة التي تُدرك بها مُطوَّعَة، ومُحدَّدَة حضاريًّا؛ الأمر الذي يدعوني للقول بإعادة النظر في النظريات الحضارية الغربية، خاصَّةً عند تناول الأمراض النفسية؛ فالحضارات في الشرق ودول العالم الثالث ليست مُضطرَّةً أن تَسلُكَ مَسْلَكَ أوروبا وأمريكا لكي تتقدَّم، وأعتقد أن الأخذ بفكرة المستعرض أقرب إلى الصواب.

---

(1) عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، دار التنوير للطباعة والنشر ببيروت، 1983.

ومـن هنـا تـأتي إضافـة "بوليتـزر" مثـالًا عـلى الجهـد الخـلَّاق لنقـد أسـس علـم النفـس، وتقديـم تَصـوُّرٍ نظـريٍّ جديـد. صحيـح أن هـذا الاجتهـاد لم يجـد حتـى اليـوم مَـن يضعـه موضـع التطبيـق، إلا أننـا لا نسـتطيع تجاهُلَـه إذا أردنـا أن نفهـم كيـف يكـون الإبـداع النظـري في علـم النفـس. لقـد حـاول "بوليتـزر" أن يضـع أُسُسًـا لعلـم النفـس تسـتند إلى الفلسـفة الماركسـية، تلـك الفلسـفة التـي تعتـبر الإنسـان موجـودًا اجتماعيًّـا، وأن سـلوكه يتحـدَّد بالتفكـير والانفعـالات ودرجـة معرفـة القوانـين التـي تحكـم الطبيعـة والمجتمـع والإنسـان نفسـه، وأن الإنسـان لا يمكـن أن يُوجَـدَ بمعـزلٍ عـن الآخريـن؛ فجَوْهَـرُ الإنسـان ليـس تجريـدًا كامِنًـا في كل فـرد واحـدٍ، إنمـا هـو في حقيقتـه جِـماعُ العلاقـات الاجتماعيـة. وقـد بيَّنَـت الماركسـيَّةُ للمـرَّة الأولى أن الدوافـع الموضوعيـة الحقيقيـة التـي تُحـدِّد نشـاط الإنسـان تمتـدُّ جذورهـا في النهايـة إلى الظـروف الماديـة لحياتـه، وأن السِّـمات النوعيـة للإنسـان، تلـك التـي تُعبِّر عـن جوهـره باعتبـاره "إنسـانا"، وهـي: الوعـي، والحيـاة الروحيـة، والقـدرة عـلى العمـل والابتـكار- هـي نتـاجٌ للعمـل الاجتماعـي. وقـد أَحَـلَّ ماركـس (محـلَّ النَّظريـاتِ القديمـةَ عـن الطبيعـة البشريـة العامَّـة) فكرتَـه عـن طبيعـة الإنسـان المحسوسـة، التـي يحدِّدهـا النظـام التاريخـي المحـدِّد للمجتمـع. وأنـه في ظـروف تقسـيم العمـل، والتناقُـضِ الطَّبَقـيِّ، وسـوء توزيـع الـثروة- لا يسـتطيع الإنسـان أن يُطـوِّرَ -بِحرِّيَّـةٍ- قُدراتِـه المادِّيَّـةَ والرُّوحيَّـة، ولا بُـدَّ مـن أن يتطـوَّر حتـمًا مـن جانـب واحـد، وهـو مـا ينعكـس قبـل كل شيء في التناقـض بـين العمـل الذهنـي والبـدني. وفي ظِـلِّ الاشـتراكية وحدهـا سـوف يجـد الإنسـان كُلَّ فرصـة للتطـوُّر الشـامل، وتنميـة مَلكاتِـه وميولـه الفرديَّـة إلى أقصى حَـدٍّ. وتتكـوَّن الماركسـيَّة مـن شِـقَّيْن أساسـيَّيْن: المادِّيَّـة الجَدليَّـة، والمادِّيَّـة التاريخيَّـة، وتتضمَّـن الماديـة الجدليـة النظـرةَ الفلسـفية العلميـة للعـالم، أمـا الماديـة التاريخيـة فهـي العلـم الـذي يَـدرُسُ القوانـين العامـة للتطـوُّر الاجتماعـي وأشـكال تَحقُّقِـه في نشـاط البـشر التاريخـي؛ وبالتـالي فهـي تُشـكِّل الأسـاسَ النَّظـريَّ والمنهجـيَّ لـكل العلـوم الاجتماعيـة[1] والإنسـانية.

ومهـما كان الـرأي في تلـك الفلسـفة وقضاياهـا، فـلا يمكننـا إنكارهـا؛ إذ إنَّهـا حقيقـةٌ مـن حقائـق العـصر، لا تكتمـل المَعرِفـةُ بدونهـا. وأراد "بوليتـزر" أن يجعـل الإنسـان الفـرديَّ بحياتـه المُعاشَـة والملموسـة موضوعًـا لعلـم النفـس، وسـمَّى هـذا الموضـوع

(1) روزنتال ويودين، الموسوعة الفسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة ببيروت، الطبعة الرابعة، 1984.

"الدراما". وأساس الدراما هو الجَدَل، ذلك الجدل الذي تضارَبَت فيه الآراء، فَوُصِفَ تارةً بأنه تلاعُبٌ بالألفاظ، ومُصادَرَة على المطلوب. وتارةً أخرى بأنه تَصيُّدٌ للمُتناقِضات، وتَحطيمٌ للمنطق؛ ولذلك فهو كارِثَةٌ على الفكر المعاصر. بينما وصفه آخرون بأنه الفلسفة، لا أكثر ولا أقلّ، وأن البديل الوحيد له هو الإنكار الدوجماطيقي، أي الاحتماء منه في سواتِرِ الاعتقادات الجامدة، التي لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من خلفها. والحق أنه يُقصَد بالجَدَل ("الديالكتيك Dialictic"): وجودُ عقلٍ جَدَليٍّ، أي أنه صفةٌ للفكر، ويتَّسِمُ بسماتٍ مُعيَّنةٍ، هي: أوَّلًا: التقابُل بالتَّضاد أو بالتناقض؛ فكلما كان هناك تناقُضٌ أو قضاء نشأت حركةٌ للتخلُّص منه. والسِّمَة الثانية للعقل الجدلي هي: الكُلِّيَّة أو الشمول، أي أنه يُدرِكُ الأشياءَ الجُزئيَّةَ في حقيقتها الكُلِّيَّة، فيعرف حاضِرَها ومستقبلها، ويعرف علاقاتها الحقيقية التي لا يَكشِفُ عنها وَضعُها المباشر، أي أنه -باختصارٍ- يُدرِكُ الإمكانات الحقيقيَّة التي يتضمَّنها الشيء. وبسبب عنصر الشمول هذا تُعارِضُ الفَلسفَةُ الجدليَّةُ -باستمرارٍ- الفَلسفاتِ الواقعيَّةَ والوضعيَّةَ، التي تقتصر على الجُزئيِّ والمُعطَى، فالكُلِّيُّ أكثرُ من الجُزئيِّ؛ ولذلك فإن إمكانات البشر والأشياء لا تستند إلى الصور والعلاقات المعطاة التي قد يظهرون بها واقعيًّا. والخاصِّيَّة الثالثة للعقل الجدلي هي: أنه هو نفسه مُركَّبٌ، فهو يُعارِضُ العَقلَ التحليليَّ أو الوضعيَّ، ولكنه يشمله في جوفه في ذات الوقت.

ولا يُدرِكُ غالبيَّةُ مَن يعملون في مجال علم النفس أهميَّةَ الفلسفة أو الجدل؛ لأنهم إمَّا -ببساطةٍ- لا يدرون عنها شيئًا؛ فمعظمهم من الذين تخرَّجوا من كليات التربية وتخصَّصوا في علم النفس "على كِبَر"؛ فلا يعرفون الجَدَل، ولا السَّلبَ، ولا النَّفي، ولا الانتقادَ، ولا الأفكار، ولا أنَّ المعرفة تبدأ بكلمة "لا"- أو أنهم من المُعادين للفلسفة والاجتهاد النظري، والقانعين بترجمة الاختبارات الأمريكية، والتابعين للسلوكيَّة. نحن إذًا -كما يقول عبد الفتاح إمام[1]- نبغي إحياء مَلَكَة السَّلْب التي ضاعت عندنا تمامًا؛ فكل حياتنا إيجاب، ونحن أحْوَجُ ما نكون إلى الفكر الجَدليِّ، الذي يضطرُّنا في جميع لحظات الحياة الفكرية إلى أن نعيد بناء المعرفة كلها. أمَّا المعارف التي لا تكون موضِعَ سؤالٍ فإنَّها تتحوَّل في النهاية إلى

(1) د. عبد الفتاح إمام، جدل الإنسان، دار التنوير، بيروت، 1984 (ص 245).

عَقَبَةٍ في وجـه تَقـدُّمِ المعرفـة؛ فلدينـا مـن الأجوبـة الجاهـزة أكـثر ألـف مـرَّة مـمَّا نطـرح مـن أسـئلة؛ ولهـذا نحـن متوقِّفـون عـن النُّمـوِّ الروحـي، أو العقـلي -إن شـئتم-.

ولقـد كانـتِ محاولـة "بوليتـزر" -في اعتقـادي- محاوَلَـةً للخـروج مـن نطـاق الفهـم الجامـد الـذي فرَضَتـه الماركسـية الرسـمية عـلى المفكِّريـن، فمجـرَّد اختيـاره "للدرامـا" موضوعًـا لعلـم النفـس يعنـي أنـه يرفـض "الفهـم البافلـوفي" لعلـم النفـس، وبالتـالي السـلوكية التـي مـال اليهـا حينًـا بعـضُ المفكِّريـن الفرنسـيين في علـم النفـس. يقـول "لوسـيان سـيف"[1] إن "بوليتـزر" قـد أبـدع في نقـده للتصنيـف المجـرَّد للوظائـف العقليـة، التـي كان عِلْـمُ النَّفـس -في وقتـه- شـديدَ الإعجـاب بهـا، ولكنـه لم يحـاول تقديـم بديـل، إنمـا رسـم بدايـاتٍ مُهمَّـةً يجـب عـلى الخَلَـف أن يتابعوهـا، وأنهـا لا تقـدِّم هـي نفسـها حـلًّا. ثـم يقـول إن المَهَمَّـة هـي تأسـيس عِلـم نَفسٍ جديـد مسـتقلٍّ عـن علـم النشـاط العقـلي وعلـم السـلوك، وهـو مـا يقابـل -بشـكل أو بآخـر- علـمَ الدِّرامـا الـذي اقترحـه "بوليتـزر"، أو مـا يسـمِّيه "سـيف": "علـم الشـخصية".

وقـد أخطـأ "بوليتـزر" -نظـرًا لظـروف علـم النفـس في ذلـك الوقـت- عندمـا قـال في نهايـة كتابـه إن "السَّـيْكُوتِكْنِيك" (أي الاختبـارات النفسـية واسـتخدامها) هـو الطريـق لوضـع أفـكاره مَوْضِـعَ التَّطبيـق، ولكـن ذلـك لا ينفـي عـن فكرتـه اللامعـةِ عبقريَّتَهـا وضرورةَ مُتابَعَتِهـا؛ فالاختبـارات النفسـية يُنظَـرُ إليهـا هـذه الأيـام بـشيء كثـيرٍ مـن التَّحفُّـظ؛ فقـد أجـرت الجمعيـة النفسـية البريطانيـة اسـتفتاءً بـين أعضائهـا عـام 1980[2] بشـأن آرائهـم حـول اسـتخدام الاختبـارات النفسـية؛ فأجـاب أحدهـم: "أتوقَّـع أنَّ الاختبـارات كـما نعرفهـا اليـوم سـيكون مصيرهـا مصـير الفرينولوجيـا". ولم تكـن كل الإجابـات بهـذا التشـاؤم، وإنْ انتقـدَ مُعظـمُ الأعضـاء مَوقِـفَ الاختبـارات، وطالبـوا بـأن تكـون "أقـلَّ أكاديمِيَّـةً"، وأنْ "تتوجَّـه إلى الحيـاه اليوميـة المُعاشَـة"، وأن تكـون "أكـثرَ تَحفُّظًـا فيـما تَدَّعيـه لنفسـها"، وأنَّ "هنـاك تَوسُّـعًا مُبالَغًـا فيـه في ألـوان الاختبـارات"... إلـخ.

(1) Luceinseve: "Marxism and theory of personality", Lswerance & Wisheirt, London, 1975, p. 36.

(2) The use of tests by psychologists: Report on a survey of B.P.S members,"Barbara Tylerand ken miller".

@Buuetin of the B.P.S, Nov. 1986, Vol 39, (403– 410).

هـذه بعـض الأفـكار الانتقاديـة التـي درات بـرأسي عنـد تقديـم الطبعـة الثانيـة مـن هـذا الكتـاب القيِّـم. أرجـو أن يتقبَّلَهـا الجميـعُ بصـدرٍ رحـب؛ فـما قَصـدتُ إلَّا الخَـير.

لطفي فطيم

كلية الاداب _ جامعة صنعاء

1986

الباب الأوَّل

عِلْمُ النَّفْسِ الأُسْطُوريُّ
وعِلْمُ النَّفْسِ العِلْمِيُّ

إن السيكولوچيا الجديدة، أي المختلفة عن السيكولوچيا النابعة من محاولات نهاية القرن الماضي، بما تتضمَّنه من قضايا التأكيد والنفي المتَّصِلَة بهذه المحاولات- هي اليومَ حقيقةٌ، إذا لم تكن ثابِتَةً ثبوتًا، فهي على الأقل أملٌ يُرْتَجَى. وبالرغم من الجهود التي يبذلها كلَّ يوم "دُعاةُ المُهادَنَة" لإظهار كفاية البناء الأساسي لسيكولوچيا الأمس في مواجهة المتطلَّبات التي تحملها الحركة الجديدة؛ فإن الدراسة التي نحن بصددها تبدأ من تأكيد عدم كفاية السيكولوچيا القديمة، وشرعية أهداف السيكولوچيا الجديدة. ووسط الأسف والتردُّد من جانب غالبية السيكولوچيين فقد قرَّرَت دراسَتُنا الحالية -بحزمٍ- أن تعتمد على المحاولات السيكولوچية الحديثة، التي تحاول أن تنفصل عن أُسُس السيكولوچيا القديمة، تلك التي حَظِيَت من زمنٍ طويل باحترام "التعليم الرسمي".

إن الوحدة هي -بالتأكيد- الحاجَة المُلِحَّة لِعِلْم النَّفس اليوم. ولكنَّ بناءَ علمٍ لا يتضمَّن -فقط- الإدراكَ الواضح لأُسُسه، وإنما يتطلَّب في الوقت نفسه إزالَة الأشكال الأسطورية و"قبل- العلمية" الَّتي تَمُرُّ بها كُلُّ العلوم. وبما أنَّ أيَّ عِلمٍ من العلوم لا يمكن أن يكون وضعيًّا في صورتين معًا، أو في صُوَرٍ عديدة؛ فإن إزالَة كافَّة الصور الخاطئة أو الناقصة يجب أن يصدر عن موقف مُوحَّد.

وإذا كانت الوحدة يجب أن تكون الموضوعَ الأساسيَّ في البرنامج الدراسي؛ فعلى الدراسة الحالية ألَّا تَدَعَ الوحدةَ في الوقت نفسه تنحدر إلى "الحل الوسط"، وتبسيط الموقف الحالي، بحيث نجد في ناحيةٍ: السيكولوچيا التي هي غير وضعية على الإطلاق، وفي ناحية أخرى: تلك التي تريد أن تكون وضعيَّةً بشكل مُطلَق. وهذه هي في الحقيقة الثنائية الرئيسية التي توجد في أساس كافَّة العلوم، بالمعنى الدقيق للكلمة، والتي منها صَدَرَت العلوم في سبيل الوصول إلى تلك الوحدة التي تُرعِبُها اليوم للسيكولوچيا.

ومن الواضح أن الحاجة إلى نقد السيكولوچيا الكلاسيكية، وإرساء أُسُسِ السيكولوچيا الجديدة هي اليوم أَكبَرُ مِمَّا كانت عليه بالأمس. ومع أن هذا

المشروع المزدوج لا يمكن أن يتحقَّق بواسطة أفراد مُنعَزِلين، ولا بواسطة اتجاهات بِعَيْنِها؛ إلَّا أنَّه في الواقع لا يتولَّى هذه المَهَمَّةَ الآن إلَّا أفرادٌ معزولون، واتجاهاتٌ خاصَّة.

فرؤية الأخطاء وإدراك الإصلاحات التي يجب إنجازها لا بُدَّ أن تنبع بالتأكيد من أبحاث وضعية، وهي بالضرورة خاصَّة، ولكن لا يمكن أن يؤدِّي أيُّ بحثٍ خاصٍّ -مهما كانت قيمته الوضعية- إلى ذلك وحده؛ إذْ لن يَصِلَ إلى الرؤية المتكامِلَة للأخطاء، ولا إلى إدراك الإصلاحات في شمولها. وتدفع الأبحاثُ الخاصَّةُ -المعزولةُ عن بعضها البعض- أصحابَها إلى أن يستعيضوا عن التعميق الكامل للنَّقد الذي يُقدِّمونه، وعن الإصلاحات التي يتطلَّبها هذا النقد "بحلولٍ وَسَط"، وأبنية نظريَّةٍ لا تؤدِّي من بعض الوجوه إلَّا إلى عرقلة التقدُّم الحقيقي.

ونحن نرى اليوم اتجاهاتٍ بعينها تكتفي بتأكيدات "دوجماطيقية" (تقريرية) -بالمعنى المعروض لدى "كانط" لهذه الكلمة- حول نقاطٍ، هي نفسها التي ينفيها اتجاه آخر، بناءً على نقد مُنظَّم. ويستبدل البعضُ الآخر "الحَلَّ الوسط" مع السيكولوچيا الكلاسيكية، أو بناءً لفظيًّا بحتًا بالتعديل، الذي هو الغَرَضُ الجَوهريُّ، وسبب الوجود لقيام اتجاهٍ آخَرَ حديثٍ، ويقوم البعض الآخر على أساس إدراكٍ ناقصٍ لِنَقْدٍ أو لتعديلٍ نظريٍّ أو منهجي، بينما نجد لدى اتجاهات عديدة أخرى النَّقدَ الكامل والمُدقِّقَ لنفس النقد أو الفكرة أو المنهج.

ونرى بَعْدُ جميعَ هذه الاتجاهات تقريبًا تبحث عن السيكولوچيا الجديدة هنا وهناك، كما لو كانت نوعًا من "حجر الفلاسفة"، ناسِين أن هناك أبحاثًا قَدَّمَت، لا مُجرَّد تحسيناتٍ بسيطةٍ للسيكولوچيا الكلاسيكية، بل فكرة أساسية وجديدة تمامًا -على الأقل بالنسبة للسيكولوچيين- تبدو في نهاية الأمر أنها... السيكولوچية الوَضْعِيَّة.

وإذا كان من غير الشرعي، ومن العبث، انتزاعُ الاختصاصيين من أبحاثهم الخاصَّة؛ فإن هذه الحالة من الفهم التي تسمح اليومَ لكل سيكولوچيٍّ أن يُحدِّدَ بدقَّةٍ الظَّاهرةَ التي يشتغل نفسه بها باعتبارها ذات دلالة خاصة، هذه الحالة تعود ببساطة إلى أن عدم اتفاق الرأي حول المجال الصحيح لعلم النفس، لا يسمح بمعرفةٍ دقيقةٍ لما هو أساسيٌّ بالفعل وما هو ليس كذلك، وتجعل الأمر على غير ما نحب، ومن ثَمَّ يجب أن نعتاد على فكرة أن كل ما يخصُّ أُسُسَ

عِلـمِ النَّفـس لا يمكـن تحقيقـه بِصفَـةٍ نهائيَّـةٍ إلّا بالعمـل الجماعـي؛ إذ إنَّ أيَّ نظـامٍ فـرديٍّ هـو دائمًـا بنـاءٌ تعسُّـفيٌّ، وأنَّ العمـل الجماعـيَّ وحـده يسـتطيع أن يصـل إلى هـذا النظـام الـذي نسـمِّيه عِلـمًا.

إن تحقيـق هـذا الهـدف الأخـير لـن يتـمَّ إلا بالتدريـج، ويتوقَّـف بـطء أو سرعـة هـذا التقـدُّم عـلى مواقـف مختلـف الاتجاهـات التـي يحتـاج الأمـر إلى تنظيـم تعاونهـا، ولـن نسـتطيع التقـدُّمَ نحـو مـا هـو أسـاسيٌّ إلّا بقـدر مـا تتيحـه لنـا تلـك الحالـة التـي بلغتهـا البحـوث السـيكولوچية نفسـها، ومـع ذلـك، نسـتطيع أن نبـدأ مـن الآن الـصراع ضـدَّ بعـض الاتجاهـات المسـؤولة أساسًـا عـن الفـوضى في الموقـف الراهـن لعلـم النفس.

علينـا -بـادئ ذي بـدءٍ- أن نُخَلِّـصَ القـرارات الخاصَّـة بالطريقـة الحقيقيـة التـي تطـرح بهـا مشـكلة السـيكولوچيا في الوقـت الحـالي- مـن التَّعسُّـف الفـردي أو الإقليمي. إذ يميـل أغلـب السـيكولوچيين إلى التـصرُّف كـما لـو كان الأمـر يتوقَّـف عليهـم وحدهـم في تقريـر مـا هـو مقبـول، ومـا يحتـاج إلى إعـادة النظـر في مسـألة سـيكولوچيا الأمـس، دون الاهتـمام بالوضـع القائـم فعـلًا حاليًـا.

ولذلـك؛ فإنـه مـن المناسـب تحديـد الموقـف الراهـن لقضيـة السـيكولوچيا وفحـص كافَّـة المشـاكل التـي تثيرهـا العلاقـاتِ القائِمَـةَ بـين مختلـف الاتجاهـات السـيكولوچية الحديثـة. ولمَّـا كان هنـاك حتـى الآن بعـض السـيكولوچيين الذيـن يعتقـدون أن الحركـة الجديـدة قـد وَضَعَـت كلَّ شيء محـلَّ التسـاؤل، مـا عـدا فـرض "الحيـاة الداخليـة"؛ فيجـب أن نبـدأ بصفـة خاصَّـةٍ بتأكيـد نَقْـدِ المذهـب القائـل "بالحيـاة الداخليـة" في كافَّـة أشـكالها.

ويجـب في نفـس الوقـت أن نقـوِّضَ -مـن الآن- الاتجـاهَ الـذي يقـوم عـلى تركيـز التفكـير في أُسُـس علـم النفـس حـول عـددٍ مُعـيَّنٍ مـن القضايـا والأبحـاث، هـي بعينهـا لا تتغـيَّر، كـما لـو كان مـن المسـتحيل زَحْزَحَـةُ مركـز الثِّقَـل في علـم النفـس. والمشـكلة المطروحـة بالنسـبة لـكل القضايـا هـي إحـلالُ القـرارات الجماعيـة محـلَّ القـرارات الفرديـة أو الإقليميـة، وإحـلال المنهـج محـلَّ التقاليـد، والأفـكار التابعـة مـن التعقُّـلِ محـلَّ الأفـكار المأثـورة، وفي النهايـة خطَّـة عقليـة منطقيـة للعمـل الجماعـي، بـدلًا مـن الآراء الفرديَّـة أو الإقليميـة، التـي لا تعـدو أن تكـون مُحتَمَلَـةً فحسـب.

-1-

يبدو -على الأقل للوهلة الأولى- أنَّ علم النفس إنما يعاني من مزيد من النقد، لا من مزيد من الدوجماطيقيَّة. فتاريخه منذ خمسين عامًا يبدو أساسًا أنه سلسلة من النقد: نقد السيكولوچيا الفلسفية القديمة على يد المدرسة المسمَّاة "بالعلمية"، ونقد السيكولوچيا "العلمية" على يد أتباع "ڤوندت". ومن ناحية أخرى نقد سيكولوچية "العناصر" الأولى. الميكانيكية على يد "سيكولوچيا عناصر" تدَّعي أنها دينامية (كبرچسون مَثَلًا). ثم نقد "سيكولوچيا العناصر" عمومًا على يد "الجشطالت". ومن جهة نظر ثالثة أيضًا نقد السيكولوچيا التي لا تَرْقَى إلى الدلالات على يد سيكولوچيا الدلالات نفسها[1]، وعلى الأخص نقد سيكولوچيا الروح على يد سيكولوچيا الشعور، وأخيرًا نقد سيكولوچيا الشعور على يد السيكولوچيا التي لا تعترف بالشعور ولا بالحياة الداخلية عمومًا (مثل "السلوكية" لدى "واطسن").

ولقد قال "ليبنتز" عن الفلاسفة أنهم على حَقٍّ في ما يؤكِّدونه ومُخطِئون فيما ينفونه. ويبدو أن الأمر على العكس بالنسبة للسيكولوچيين فهم مُخطِئون

(1) يقصد المؤلف بسيكولوچية الدلالات ما كان يطلق عليه Geisteswissenschaftliche psychologie، أي السيكولوچيا بوصفها عِلمًا للظواهر النفسية (العقل) حاملة المعنى والدلالالة "الإنسانية"، وذلك في مقابل ما كان يُطلَق عليه Naturwissenschaftliche Psychologie، أيْ علم النفس بوصفه علمًا "طبيعيًا" (مثل علوم النبات والحيوان... إلخ) التي تستبعد من ميدانها المعانِيَ والدلالاتِ الإنسانيَّةَ.

فيـما يؤكِّدونـه، ومصيبـون فقـط فيـما ينفونـه. والحـق أن التخـلِّي عـن السـيكولوچيا الفلسـفية القديمـة كان شرطًـا حَيويًـا بالنسبة للسـيكولوچيا العلميـة، والحـق كذلـك أن سـيكولوچيا "ڤونـدت" لَيْسَـت هـي السـيكولوچيا العِلميَّـة الحقيقيـة. وحقيقـيٌّ أيضًا أن مذهـب الـذَّرَّات الروحيَّـة لم يكـن سـوى خُرافـة. إلَّا أنـه حقيقـيٌّ كذلـك أن ديناميـة "برچسـون" مَثلًا ليسـت سـوى خرافـة أخـرى.

وصحيـحٌ مَـرَّةً أخـرى أن السـيكولوچيا التـي لا ترقـى إلى الـدلالات لا تسـتطيع أن تبلـغ الإنسـان، وبالتـالي فهـي ليسـت سـيكولوچيا حقيقيَّـةً، وصحيـحٌ كذلـك أننـا بالـدلالات الموضوعيـة لم نتغلغـل كثـيرًا في سـيكولوچية الإنسـان، وصحيـحٌ في النهايـة أنـه ينبغـي استبعاد الـروح (النفـس) مـن عِـدادِ الموضوعـات التـي يجـب أن تبحثهـا سـيكولوچيا وضعيَّـة، ومـن الصحيـح -فـوق كل ذلـك- أن هـذا ينطبـق عـلى الشـعور نفسـه وعـلى الحيـاة الداخليـة بصفـة عامَّـة.

فليـس إنعـدام النَّقـد إذًا هـو مـا يلفـت النَّظَـرَ لـدى السـيكولوچيين، فإنهـم لم يهملـوه، بـل تفوَّقـوا فيـه وحقَّقـوا في هـذا السـبيل تقدُّمًـا ملحوظًـا. وأننـا نشـاهد اليـوم في الواقـع حركـةً ثانيـة حـول أُسُـسِ السـيكولوچيا، ومـن حركـة لأخـرى نشـهد تعميقَ النقـد بشـكل حقيقـي، حتـى رأينـا نَقْدَ جوهـرِ المشـكلةِ يـأتي في أعقـاب نقـد الشَّـكل.

وفي الواقـع أن مُمثِّـلي الحركـة الأولى التابعـة مـن "ڤونـدت" لم يأخـذوا عـلى السـيكولوچيا القديمـة سـوى شَـكْلِها، أي كونهـا تتحـدَّث عـن النفـس، وتمـارس الاسـتبطانَ عَلَنًـا. إلَّا أنهـم لم يفكِّـروا قَـطُّ في نقـد الجوهـر، أي الخطـوات التـي أدَّت -في السـيكولوچيا الفلسـفية القديمـة- إلى المقاصـد الميتافيزيقيـة والاسـتيطانية، وكذلـك مفاهيمهـا والمـادة التـي تنصـبُّ عليهـا تلـك المقاصـد: فـإذا كانـوا قـد اسـتبعدوا المذهـبَ القديـمَ في الـروح (النفـس)، فإنهـم لم يفكِّـروا في وضـع ظواهـر النفـس التـي لا تَقِـلُّ قِدَمًـا مَوْضِـعَ النَّقـد. وبـدلًا مـن إقامـة سـيكولوچيا جديـدة حقًّـا لم يفعلـوا شـيئًا سـوى الاحتفـاظ بالقديـم في ثـوب جديـد. وكذلـك إذا كان نقـدُ الارتباطيَّـةِ بـدأ بــ "هوفدنـج" و"وليـم چيمـس"، فـإن هـذا النقـد لم يتنـاول إلَّا الشـكل، ولم يبحـث مسـألة اسـتبعاد هـذه السـيكولوچيا التـي يتركَّـز موضـوع بحثهـا في الكشـف عـن طريقـة ارتبـاط الظواهـر النفسـية ببعضهـا البعـض، بـل انصـبَّ النقـد فقـط عـلى الشـكل

الميكانيكي لمفهوم هذه العلاقة. وعندما شرع "برچسون" مَثَلًا في نقد السيكولوچيا الكلاسيكية بشكل عام، لم يبحث استبعاد هذه الاتجاه الذي لا يعرف سوى المشاكل الوظيفية، وإنما استبعد أساسَها الميكانيكيَّ فقط، وكل ما كان يريده في الواقع هو أن يعيد قولَ التعاليم الكلاسيكية بألفاظ دينامية. وبالمِثْلِ، فيما يختصُّ بالمحاولات الموضوعيَّة التي ترمي إلى إحداث "ثورة كوپرنيكية" في السيكولوچيا، تتلخَّص في الانتقال من الملاحظة الداخلية إلى الملاحظة الخارجية، وهي لا تعني بالنسبة لـ "بختريف" -مثلًا- إلَّا أن السيكولوچيا يجب أن تعني من الآن فصاعِدًا بمُعْطَيات الملاحظة الخارجية وحدها. فكأنَّ "بختريف" لا يعيب على السيكولوچيا سوى وضع تعاليمها في لغة الاستبطان، وكل ما كان يريده هو إعادة صياغة نفس هذه التعاليم ونفس الطريقة في النظر إلى الإنسان بِلُغَةِ الفِعل المُنعَكِس.

إلَّا أن المطلوب ليس الاكتفاءَ بنقد الشكل الذي أعطته السيكولوچيا القديمة لتعاليمها، بل المطلوب هو أن تنقد كذلك خطوات والأساليب التي أدَّت إليها.

-2-

وهكذا، بعد فترةٍ من الهُدنَة التي بدا أثناءها لغالبيَّة السيكولوچيين أن السيكولوچيا قد تخطَّت نهائيًّا المرحلة قبل العلمية، وأنها قد انتظمت نهائيًّا في سلك العلوم، تُثار اليومَ من جديدٍ قضيةُ الأُسُس، وهذا يعني أن السيكولوچيين غير راضين عن النتائج. وفي الواقع فإنهم يأخذون على السيكولوچيا الكلاسيكية تجاهُلَها وحدة الإنسان وكُلِّيَّته، وأنها اكتفت بالتأليف بين عناصر لا دلالةَ لها، وأنها نظَّمَت تجارب شديدةَ التجريد، لا تتَّصل إلَّا بالمشاكل الوظيفية من المُتعذِّر، بل من المستحيل تكامُلُها في الحياة الواقعية للإنسان... إلخ. ويبدو كذلك أن هناك إجماعًا حول هذه النقطة؛ إذ أصبحت هذه الانتقادات في نهاية الأمر حديثًا مُعادًا بينهم.

وقد يبدو أن السيكولوچيا الكلاسيكية وبها كل هذه المثالب قد أُصيبَت في الصَّميم، ولكن الأمر ليس كذلك. فما أن تَكَلَّم المُمثِّلون المتقدِّمون للحركة الجديدة

عـن ثـورة في السـيكولوچيا حتـى قيـل لهـم إنـه لا توجـد أي هُـوَّة بـين السـيكولوچيا الجديـدة وتلـك التـي اعتنقهـا الجيـلُ السـابق؛ إذ يقـال لهـم بـأن المَطاعِـنَ التـي تُوجَّـه إلى سـيكولوچيا الأمـس يمكـن أن تنطبـق عليهـا، ولكنهـا في الواقـع لا تنطبـق لأنهـا تتعلَّـق بمرحلـةٍ تخطَّيناهـا مـن قبـل[1]، فـإذا كان النُّقَّـاد ينحـون باللائمـة عـلى التحليـل إلى عنـاصر، فـإن "ڤونـدت" قـد بَـيَّن مـن قبـل أن ناتِـجَ التركيـب synthèse يختلـف عـن مجمـوع العنـاصر المُكوِّنـة لـه، ويتطلَّـب دراسـةً مُستقلَّةً[2]، ثُـمَّ إذا كان يُؤخَـذُ عليهـا تجاهُلُهـا وحـدةَ الإنسـان وكُلِّيَّتَـه، فليـس مـن العسـير إثبـات أن هـذه المسـائل شَـغَلَت دائِمًـا بـالَ السـيكولوچيين في الجيـل المـاضي، وأن محـاولات "برچسـون" قـد اعتبرتهـا مركـزَ مَشـاغِلها. وإذا وُجِّـه اللـومُ إلى السـيكولوچيا الكلاسـيكية عـلى إهمالهـا وجهـةَ نظـر الـدلالات، فَـيُرَدُّ عـلى ذلـك بـأن السـيكولوچيا الكلاسـيكية هـي نفسـها التـي أكَّـدَت أهميـة النظـرة البيولوچيـة، طارِحَـةً بذلـك ضرورةَ دراسـة الوظائـف السـيكولوچية مـن وجهـة نظـر التَّكيُّـف، وبالتـالي، مـن وجهـة نظـر غائِيَّـةٍ مُحـدَّدة، واضِعَـةً نفسـها بذلـك داخِـلَ مجـالِ الـدلالات. وفي النهايـة مَـن يجسر عـلى أن ينكـر عـلى التجـارب السـيكولوچية الشـهيرة قيمَتَهـا وحقيقَتَهـا ودَوامَهـا؟.

وهكــذا يثبــت "أنصــار المهادنــة" -الذيــن يســتحقون لقــب رجــال الإصــلاح- في كل يـومٍ -إن لم نَقُـلْ: عِـدَّةَ مـرَّاتٍ في اليـوم- أنَّ كُلَّ مـا هـو حَسَــنٌ في السـيكولوچيا الجديـدة قـد أرادتـه، وتوقَّعَتـه، بـل وحَقَّقَتـه السـيكولوچيا القديمـة، ومـا عـدا ذلـك مبالَغَـةٌ وراديكاليـة رخيصـة. فكيـف نتحـدَّث إذًا عـن قطيعَـةٍ بـين سـيكولوچيا اليـوم وسـيكولوچيا الأمـس؟ وإذا لم تَكُـن هـذه القطيعـةُ موجـودةً فـإنَّ مـا نتَّخـذه أساسًـا للحركـة الجديـدة يفقـد معنـاه، فلـماذا نتحـدث عـن سـيكولوچيا جديـدة؟

وهنـا نجـد أن القائمـين بالنقـد الجديـد هـم أنفسـهم الذيـن مَهَّـدوا الطريـق لِحُجَـجِ الذيـن يَبْخَسـون قيمَتَـه. ويبـدو أيضًـا أنهـم وجَّهـوا انتقاداتهـم بحيـث يمكـن التَّغلُّـب عليهـا فـورًا. ولمَّـا وصلَـت المسـألةُ إلى تحديـد الإدانـة بَـدَا أن هـؤلاء السـيكولوچيين يخافـون مـن الـدِّرع المـدرسي للسـيكولوچيا القديمـة، الـذي انهالـوا عليـه نَقـدًا. فالغالبيـة منهـم تشـعر بحـرَجٍ شـديد أمـام علـم النفـس التجريبـي؛ فَهُـم يحسُّـون أن بـه نقصًـا رهيبًـا، ولكنَّهـم يخشـون -دون أن يتبيَّنـوا مصـدرَ خَشْـيَتِهم- رفـضَ النتائـج

---

(1) Buhler: Die Krise der psychologie, p. 70 ff.

(2) wundt Saupe: Ein fühung in die neuere psych. Osterwieck, 1928.

التي حقَّقها عِلمُ النَّفس التجريبي خلال سنوات طويلة من العمل، تلك النتائج المستخفية في شكل دِقَّةٍ علميَّةٍ بالِغَة.

ولَجَأَت غالبيَّتُهم إلى الحيلة، فركَّزوا نقدهم للسيكولوچيا الكلاسيكية على وَجْهٍ واحدٍ لها، وأكَّدوا أن المطلوب هو تجديدٌ جزئي، فعابوا على السيكولوچيا إهمالها "البناء" structure، وأدخلوا البناءَ في حسابهم؛ وبذلك اعتقدوا أنهم صاروا في مأمَنٍ من اللَّومِ. ولكنهم نسوا أنهم لو كانوا قد بدؤوا من وجهة نظر البناء لَوَصلوا إلى كافَّةِ المشاكل التي تنطبق عليها اليوم وجهةُ النظر هذه. وهكذا أَفْلَتَ من النَّقد كُلُّ ما هو مُتضمَّنٌ في الطريقة التي تصيغ بها السيكولوچيا الكلاسيكية هذه المشاكل. وسيكون من السهل بعد ذلك على هذه الأخيرة أن تدَّعي أن الأمر لا يعدو إضافةَ شيءٍ من الدِّقَّة في التفاصيل، لا يستأهل الحديث عنها في عبارات طنَّانة.

وكان البعض الآخر أكثر حَذَرًا؛ فبدأ بالمعارضة، وتجنَّبوا -بكلِّ بساطةٍ- الحُكمَ على السيكولوچيا الكلاسيكية كما هي، وقالوا فقط إنها ليست كلَّ ما يجب أن يكون. وخلقوا شكلًا جديدًا للسيكولوچيا، ناتِجًا عن تطبيق وجهة النظر التي يؤكِّدون أنها كانت غريبةً على السيكولوچيا من قبل. فكيف تعتقد السيكولوچيا القديمة إذًا أنَّها هُزِمَت؟ على العكس، إنها تستطيع أن تعلن في فخر مُنجَزًا أو أكثر من منجزاتها التي عجز النقد عن النَّيْل منه؛ وذلك لأن النُّقَّاد يؤثرون التغاضي على الهجوم.

وعلى كلٍّ، يستطيع "أنصار المهادنة" أن يثبتوا بسهولةٍ أنه لا توجد موانِعُ أو فواصِلُ بين سيكولوچيا الأمس وسيكولوچيا اليوم، بما أن أحدًا لم يُحدِّد بوضوحٍ المبدأَ الذي يسمح له أن يمارس التَّسامُحَ الذي يُبديه في الواقع تجاه السيكولوچيا "العلمية". وممَّا يلفت النظر في هذا الأمر: اتجاه "سيكولوچيِّي الوسط"؛ إذ لمَّا كانوا مرتبطين بالسيكولوچيا الكلاسيكية بِحُكْمِ تكوينهم المهني، وتجذبهم في نفس الوقت المحاولات الجديدة؛ فإنَّهم يرغبون في الجَمْعِ بين ما هو صحيحٌ في الحركتين.

إن من العجيب حقًّا في الأمر أنهم يعتقدون أن بوسعهم السَّير فعلًا على هذا الدرب، فهم يقولون -مثلًا- إن وجهة نظر البناء ضرورية، ولكن لا يمكن الاستغناء

عـن دراسـة العنـاصر. إنَّ السـلوكية اكتشـاف عظيـمٌ، ولكـن دلالـة السـلوك لا يمكـن فَهْمُهـا إلَّا بالاسـتبطان. إن السـيكولوچيا الشـاملة مُهِمَّـة جـدًّا، ولكننـا نَديـنُ بالكثير إلى تجـارِبَ السـيكولوچيا العلميَّـة... إلـخ.

ومـن الواضـح أنهـم هنـا يتلاعبـون بالألفـاظ، فيقولـون -مثـلًا- إنـه يجـب أن نأخـذ مـا يتَّفـق والوقائـع في كُلٍّ مـن السـلوكية وسـيكولوچية الخـبرات المُعاشـة Erlebnispsychologie، ولكـن أيَّـة وقائـع؟ أَهِـيَ الوقائـع السـيكولوچية كـما تُعرِّفهـا السـلوكية، أم كـما تُعرِّفهـا السـيكولوچيا الاسـتبطانية؟ ولمَّـا كانـت تعريفـات الاثنتـين متناقِضَـةً؛ فـما أن نقـف في صَـفٍّ واحـد منهـما حتـى تسـقط الأخـرى تمامًـا، ويسـتحيل الجمـع في نفـس الوقـت بـين "مـا يتَّفـق والوقائـع" في الاثنتـين. وحيـث إنَّ الأمـر في البحـوث الوضعيـة لا يجعـل مـن السُّـخف شـيئًا قاتِـلًا؛ فإنَّـا نجدهـم يأخـذون بالتعريفـين معًـا، أو عـلى الأصـحِّ: يأخـذون بواحـدٍ منهـما مـرَّةً، وبالآخـر مـرَّةً أخـرى، حسـب الظـروف. وهكـذا يعترفـون بقيمَـةٍ ظاهـرةٍ مـن وجهـة نظـرٍ تَسـتَبعِدُها بعـد ذلـك وجهـةُ النَّظَـر التـي بمقتضاهـا سـيعترفون بقيمـة ظاهـرة أخـرى، وهـذا هـو مـا يسـمُّونه "إعطـاء النواحـي الإيجابيـة في كل اتجـاه حَقَّهـا".

وفي الواقـع لا يوجـد مبـدأٌ عقـليٌّ واحـدٌ يمكـن أن يسـمح بالأسـلوب الـذي يريـد بـه سـيكولوچيُّو "الوسـط" أن يسـتبقوا للسـيكولوچيا الجديـدة هـذا الوجـهَ أو ذاك مـن السـيكولوچيا الكلاسـيكية، بـل يبـدو -فضـلًا عـن ذلـك- أنهـم يَصْـدُرون في أعمالهـم عـن الحَـدْسِ، ويحتفظـون بمـا لـه وقـعٌ خـاص عليهـم. وبالنسـبة لهـذه النتائـج -التـي قـد تكـون صحيحـةً- تـبرزه مـرة ثانيـة وجهـةُ النَّظَـر التـي أدَّت إليهـا، وهكـذا لا تجـد السـيكولوچيا الكلاسـيكية سـببًا واحِـدًا يجعلهـا تعتقـد بالهزيمـة مـن جانـب هـذه السـيكولوچيا التـي تعتمـد عـلى نفـس مصادرهـا.

ولا يوجَـدُ حتـى الآن سـوى اتجـاهٍ واحِـدٍ تبنَّـى موقفًـا نقديًّـا واضحًـا تمامًـا، وقـدَّم صيغـةً مُحـدَّدةً في إدانتـه للسـيكولوچيا السـابقة عليـه، وفي نفـس الوقـت مَحَـكًّا واضحًـا يَحكُـمُ بمقتضـاه عـلى مـا يقبلـه أو يرفضـه؛ هـذا الاتجـاه هـو السـلوكية، بالمعنـى الدقيـق للكلمـة؛ فللمـرَّة الأولى لا يتوقَّـف رفـض نتائِـجَ مـا، أو نظريـةٍ مـا، عـلى مصادفـات التقديـرات الفرديـة؛ فقـد رفَضَـت كلَّ مـا يتضمَّـن -بأيَّـة طريقـةٍ- فَـرْضَ "الحيـاة الداخليـة".

وبهـذه الطريقـة اسـتبعَدَت فقـط وجهـةَ نظـر الواقعيـة[1]، فرغـم وضـوح المَحَـكِّ فـإن الدِّقَّـة تنقصـه؛ ذلـك أنـه قـد تكـون هنـاك -إلى جانـب الواقعيـة- عـددٌ مـن المُسـلَّمات postulats، التـي يجـب نَقْدُهـا، مثـل المُسـلَّمة الكلاسـيكية القائلـة بـأن "الظاهـرة النفسـية يجـب أن تكـون مُعطًـى حِسِّـيًّا". ومـن هـذه الناحيـة لم يفعـل السـلوكيُّون شـيئًا سـوى المعارضـة وحسـب لأنصـار الحيـاة الداخليـة، دون أن يُخْضِعـوا المُسـلَّمَةَ نَفْسَـها للنَّقـد. ولمَّـا لم يَتِـمَّ أيُّ "تأليـف" synthèse؛ فـإنَّ التضـارُبَ لا يمكـن أن يهـدأ، وظَـلَّ هنـاك خَـطٌّ مَشـترَكٌ بـين السـلوكيين واللاسـلوكيين؛ مـمَّا جعـل السـلوكيين يقنعـون غالبًـا بالنَّقْـلِ الحَـرفيِّ البسـيط.

هـذا هـو حال الفرض الأسـاسي، الـذي بِنَفْيِـه لواقعيَّة الحيـاة الداخلية يميِّز السـلوكيَّةَ كُلَّهـا، الفسـيولوجية منهـا وغـير الفسـيولوجية، بمعنـى أنـه عـن طريـق تفسـيرٍ مُعيَّنٍ "للمنبِّـه- الاسـتجابة" نَصِـلُ إلى تعريـفٍ حقيقـيٍّ للظاهـرة النفسـية. ومـن الواضـح أن هـذا ليـس إلَّا مُسـايَرَةً وخُضوعًـا لوجهـة النظـر البيولوجيـة. ولمَّـا كانـت هـذه النظـرة غـيرَ غريبـةٍ عـلى سـيكولوجيا الأمـس، فإنهـا لا تـرى في السـلوكيَّة -بالمعنـى الدقيـق للكلمـة- إلَّا إسـتخدامًا سَـيِّئًا لمبـدأ طيِّـبٍ، وبوسـعها أن تطالـب بالعـودة إلى اسـتخدامٍ "سـليم"، أي اسـتخدام لا يسـتبعد الحيـاةَ الداخليـة.

ونسـتطيع أن نفهـم الآن لمـاذا يجعلنـا النُّقَّـادُ لا نحـسُّ -إلَّا قليـلًا- بأنـه لا توجـد في السـيكولوجيا أمـورٌ محسـومة؛ فهـي حينًـا ذاتُ نظـرَةٍ أُحاديَّـةِ الجانـب، وحينًـا آخـرَ تُعْوِزُهـا كافَّـةُ المبـادئ الواضحـة المتماسِـكَة، بحيـث تُفْلِـتُ بعـضُ جوانب السـيكولوجيا التـي ينبغـي اسـتبعادها، وبحيـث يوجـد دائمًـا في الاتجاهـات الحديثـة ثَغـراتٌ تَسـمَحُ لسـيكولوجيا الأمـس بالتَّغلغُـلِ في سـيكولوجيا اليـوم، وهـذا هـو السـبب في أننـا نجـد دائِمًـا في كُلِّ هـذه الاتجاهـات الحديثـة، وتحـت مختلـف الثيـاب، النظـامَ القديـمَ لظواهـر الـرُّوح.

ومـن الجائـز أن أسـاليبَ ومُسـلَّماتِ السـيكولوجيا الكلاسـيكية غـير مُسـتقلَّة بعضهـا عـن بعـض، ومـن الجائـز -عـلى وجـه الخصـوص- أن الواقعيـة التـي هـي أسـاسُ النظـامِ الكلاسـيكي لظواهـر الـروح مُرتَبِطَـة ارتباطًـا وثيقًـا بغيرهـا مـن الأسـاليب التـي تقـوم

(1) الواقعيـة Réalisme: يبـدو أن المؤلـف اسـتخدم هـذا المصطلـح في غـير معنـاه التقليـدي، ويبـدو أنـه يقصـد واقعيَّـةَ الحيـاة الداخليـة، كـما يتَّضِـحُ مـن السـياق في السـطور التاليـة.

الاتجاهـاتُ الجديـدةُ عـلى نَفْيِهـا. وربمـا كانـت واقعيَّـةُ "ظواهـر الـروح" لا تسـتقيم مـع وجهـةِ نَظـرِ الـدِّلالات، إلَّا أنـه مـن السـهل إثبـاتُ أن السـيكولوچيا التـي تريـد تطبيـقَ وجهَـةِ نظـرِ الـدِّلالات مـع احتفاظهـا بالواقعيـة، والتجديـد الـذي تريـد إدخالَـه ليـس تجديـدًا، ولا يَتعـارَضُ مـع السـيكولوچيا الكلاسـيكية، ونسـتطيع عندَئِـذٍ أن نُثْبِـتَ أنـه -رغـم الوَثْبَـة- فـما زِلنـا في مَكانِنـا.

وبتعبـيرٍ آخـر، يجـب أن نلتمـس العُـذرَ لهـؤلاء الذيـن لا يريـدون الاعـترافَ بوجـود هُـوَّةٍ لا يمكـن عبورهـا بـين السـيكولوچيا الحديثـة وسـيكولوچيا الأجيـال السـابقة. وفي الواقـع فـإن وجـود القاعـدة الأساسـية للسـيكولوچيا الكلاسـيكية -أعنـي واقعيـة ظواهـر الـروح، وكُلَّ مـا يتعلَّـق بهـا داخـل السـيكولوچيا الحديثـة- يسـمح للسـيكولوچيا الكلاسـيكية بالتَّعَـرُّف عـلى نَفْسِـها في الحركـة الجديـدة، ولا يكـون مـن حَقِّنـا نَظَـرًا لوجـود هـذه الرابطـة الوثيقـة أن نتكلَّـم عـن هُـوَّةٍ بـين هَذَيْـن الضَّربَـيْن مـن السـيكولوچيا.

-3-

غـير أنَّ "أنصـار المهادنـة" يخطئـون أكـثر مـا يخطئـون عندمـا يؤكِّـدون أنـه ليسـت هنـاك صِلَـة منقطعـة بـين سـيكولوچيا الأمـس وسـيكولوچيا اليـوم؛ لأنـه ليـس هنـاك مـا يُوجِـبُ ذلـك، وأنـه لا مَحَـلَّ لمعارضـة السـيكولوچيا التـي حظِيـت زمنًـا طويـلًا باحـترام التعليـم الرسـمي بسـيكولوچيا أخـرى مختلفـة عنهـا تمامًـا.

إلَّا أنــه حــدث مرَّتَـين أن أحـسّ علـماء النفـس أن في سـيكولوچيا جيلهـم شـيئًا يجـب اسـتبعاده، وحاولـوا "التصفيـة" مرَّتَـيْن، فحاولـوا معارضـة مـا نسـمِّيه عمومًـا "بالسـيكولوچيا" بواسـطة السـيكولوچيا الجديـدة، أي التـي صَفَّـت مـا كان ينبغـي تصفيتـه، ولكـن هـذه التصفيـة الأولى لم تكـن كافِيَـةً، وهـذا هـو بالضبـط كُلُّ دلالـة الحركـة المعـاصرة، فالمدافعـون عـن الأدِلَّـة الكلاسـيكية يثبتـون -دون صعوبـةٍ- أن السـيكولوچيا الجديـدة لم تَـأتِ بـأيِّ تغيـيرٍ أسـاسيٍّ في أي مسـألة جوهريـة، وهـم بذلـك يقيمـون البرهـان في الواقـع عـلى أن التصفيـة الثانيـة هـي كالأولى: غـير كافيـة.

ونجـد أَنْفُسَـنا أمـام تفسـيرَيْن مُحتَمَلَـيْن، فيمكـن القـول إن الحركـة الجديـدة لم تنجـح في حَفْـرِ هُـوَّةٍ بـين سـيكولوچيا الأمـس وسـيكولوچيا اليـوم؛ لأنـه لا مَحـلَّ لهـذه الهُـوَّة، مـن حيـث أن الحركـة الجديـدة لم تفعـل شـيئًا سـوى تقديـم بعـض المطالـب التـي تسـتطيع سـيكولوچيا الجيـل المـاضي أن تفـي بهـا تمامًـا. ويمكننـا القـولُ -عـلى العكـس- إن عَجْـزَ السـيكولوچيا الجديـدة عـن حَفْـرِ هـذه الهُـوَّة لا يعنـي كفايـة السـيكولوچيا القديمـة في مواجهـة المتطلَّبـات الجديـدة، بـل يعنـي -في الحقيقـة- عـدمَ كفايَـةِ المحـاولات المعـاصرة.

ونحـن في صَـفِّ التفسـير الأخـير؛ فـإن الإحسـاس بعـدم كفايـة السـيكولوچيا القديمـة يـكاد يكـون عامًّـا، ولا تبـدو لنـا السـيكولوچيا القديمـة مُرضيَـةً لأنَّ المدافعـين عنهـا نجحـوا في إثبـات أنَّ أحـدًا لم يُدْخِـلْ عليهـا أيَّ تغيـيراتٍ تُذْكَـر. وعـلى أي حـال، فقبـل أن نقنـع بالمُسـلَّمة التـي تتضمَّـن أن كل محاولـة لإصـلاح السـيكولوچيا وإقامة سـيكولوچيا جديـدة في مواجهـة السـيكولوچيا الحاليـة- لـن يُتـاحَ لهـا إلَّا إحـداثُ بعـض التصويبـات الطفيفـة؛ لأنـه لا يوجـد في سـيكولوچيا الأمـس مـا يقتـضي تصفيَـةً أساسـيَةً... نقـول: قبـل أن نقنـع بهـذه المُسـلَّمة ينبغـي قبـل ذلـك أن نتحقَّـق منهـا بمحاوَلَـةٍ جذريَّـةٍ حقًّا. ولقـد خرجنـا مـن فحصنـا السريـع السـابق لعمليـات النقـد السيكولوچـي بـأن كافـة المحـاولات كانـت جُزئيَّـةً ومُفتَّتـة، وهكـذا تكـون الحُجَّـة الكـبرى "لأنصـار المُهادَنَـة" مجـرَّدَ تحصيـل حاصـل؛ ذلـك أن هـذه الحُجَّـة لا تعـدو القَـوْلَ بـأن الإصلاحـات الجزئيـة هـي إصلاحـات جزئيـة.

والنتيجـة الحقيقيـة التـي نسـتخلصها مـن الوضـع الـذي سـبق شَرْحُـه هـي أن الحركـة النقديـة الثانيـة لم تنجـح هـي الأخـرى في تصفيـة مـا كان يتعـيَّن عليهـا تصفيته.

-4-

ويمكننا إذًا أن نصيغ أزمة السيكولوچيا بالطريقة الآتية:

يحسُّ الجميع منذ حوالي خمسين عامًا تقريبًا أنه قد آن الأوان لكي ينتقل علم النفس من المرحلة "قبل- العلمية" إلى المرحلة العلمية، وأنه يوجد في السيكولوچيا "شئ ما" يَحولُ دون هذا الانتقال، ويَتعيَّن إزالته. ولكن أحدًا لم يستطع أن يبيِّن بدقَّةٍ الطبيعةَ الحقيقيَّةَ لما يَجِبُ إزالَتُه، ويقول لنا كيف يمكن معرفة ما إذا كانت فكرة ما أو نتيجة ما في السيكولوچيا عِلميَّةً أم "قبل- عِلميَّة". وفضلًا عن ذلك فإنه في كل مرَّة حَدَثَت محاوَلَةٌ لصياغة تعريفات أساسية يتكشَّف لنا بعد أجل قصير جدًّا أنها قاصرة قصورًا. وتبين دائمًا أن الأساس الذي يجب تصفيته ظَلَّ على ما هو عليه، ولم نبلغ هدفنا نحو "المَمَرِّ العظيم"[1]، وهذا هو السبب في أن السيكولوچيا تعاني من الإسراف في النقد. فما أن بدأت مرحلة النقد لم يكن من الميسور أن تَبلُغَ غايَتَها مادام النقد غيرَ فَعَّالٍ. ولا يمكن تفسير عدم فعالية النَّقدِ بسبب نواقِصَ فرديَّةٍ، بل إنها على العكس تكشف لنا أن مسألة أساسيَّةً قد نجحت في الإفلات من كل فحص.

ويجب أن نلاحظ أن الفكرة الأساسية التي حرَّكَت نُقَّاد السيكولوچيا حتى اليوم، هي أن ذلك الجزء من الفلسفة، الذي حَظِيَ بشرف تدريسه رسميًّا تحت اسم "السيكولوچيا" أو "ميتافيزيتا الرُّوح"- هو الشكل قَبْلَ العلمي للسيكولوچيا الوضعيَّة. فلا بُدَّ أن تكون هناك علاقة استمرار بين السيكولوچيا قبل العلمية والسيكولوچيا الوضعية، بالرغم من الهُوَّة التي أحدثها اختلاف المناهج واتِّجاه البحوث والنتائج، ذلك الاستمرار الذي يوجد بين مرحلَتَيْن من تَطوُّرٍ بِعَيْنِه.

وهذه هي الفكرة الرئيسية لدى "ڤوندت" ولدى غالبية النُّقَّاد المُحدَثين. وفيما يتعلَّق بهؤلاء فإنه من الغريب أن نلاحظ أن هذه الحركة التي ترفع شعارات "البناء"، و"الوحدة"، و"الكلية" تطبِّق وجهات النظر هذه على كل شيءٍ سوى إصلاح السيكولوچيا نفسها. والاتجاه السائد في المحاولات الجديدة يتكوَّن في

(1) المقصود: الانتقال إلى سيكولوچيا جديدة حقًّا. (المراجع).

الحقيقة من انتزاع مفهوم السيكولوچيا الجديدة من السيكولوچيا القديمة نفسها، فبوضع رقعةٍ هنا وأخرى هناك في السيكولوچيا الكلاسيكية؛ توهَّموا أنهم ينجزون بذلك إصلاحًا جذريًّا.

إلَّا أن عدم فعالية النقد قد يكشف بالذات عن خطأ هذه المُسَلَّمة، وأن الإصلاح المطلوب يتضمَّن تضحيةً أكبر ممَّا قدَّر أكثرُ النُّقَّاد تقدُّمًا.

-5-

والواقع أنه من الممكن أن يكون الإصلاح هو قطع كافَّة الصِّلات بالسيكولوچيا التي وُجِدَت حتى وقتنا هذا. ومَن يدري؟ إذا ما كان من الممكن أن تقوم سيكولوچيا عِلميَّةٌ، فمن الجائز أنه لن يكون بينها وبين ما نطلق عليه سيكولوچيا -حتَّى- تلك الصِّلَة الموجودة بين الفيزياء الحديثة وفيزياء "أرسطو".

ولكي نوضِّح الموقف الحالي يجب أن نعود إلى جذور السيكولوچيا؛ لنرى ما إذا كانت تُوجَدُ حقًّا مجموعة من الظواهر الحقيقية التي تبرِّر قيام علم جديد ضمن علوم الإنسان. غير أنه ينبغي لذلك أن نُسْقِطَ من حسابنا ذلك المنظورَ الخاص بِصَدَدِ الإنسان الذي يقدِّمه لنا البِناءُ المركزيُّ للسيكولوچيا (الحالية).

وأننا نتَّخذ في الوقت نفسه احتياطًا آخر، فنحن لا نعتقد أننا مضطرُّون إطلاقًا للبحث عن صيغةٍ تُلائِمُ في نفس الوقت سيكولوچيا الإنسان والحيوان، حتى ولو أدَّى الأمر إلى الوصول إلى مفهومٍ ينطبق على الإنسان فقط ويستبعد الحيوان؛ لأننا إذا بحثنا عن صيغة سيكولوچية يمكن أن تنطبق في نفس الوقت على الإنسان والحيوان؛ فيَجِبُ أن تكون هناك أرضٌ مشتركة بينهما؛ ممَّا سيدفعنا إلى وجهة النظر البيولوچية، وهي نظرة أُسيءَ استخدامها في السيكولوچيا الكلاسيكية.

ويمكن أن نقول أيضًا إنَّنا نبحث -كما بحث الكثيرون غيرنا من قبل- المُعطَيات المباشِرَة التي يجب أن تنطلق منها السيكولوچيا. ولكن ما تعنيه المعطيات المباشرة لدى الكُتَّاب الذين نشير إليهم يتضمَّن كُلَّ ما سبق من مهامِّ السيكولوچيا، وطريقة وضع خُطَطِها، وتحديد مَشاكِلها. فما هي تلك المعطيات المباشرة كتلك

التـي يقـول بهـا "برچسـون"، والتـي تتضمَّـن القيـامَ بمهـامَّ اسـتغرقت ألفـين مـن السـنين مـن العمـل الفكـري؟

ونحـن لا نبحـث عـلى أي حـال عـن المعطيـات المبـاشرة، بـل نحـن نحـاول معرفـةَ مـا إذا كانـت هنـاك ظواهـر حقيقيـة تـبرِّر قيـامَ السـيكولوچيا، ولا يهمُّنـا مـا إذا كانـت تعتـبر مبـاشرةً أو غـير مبـاشرة، ونحـن لا نريـد تنـاوُلَ صفاتهـا "المبـاشرة" إلَّا بقـدر ارتباطهـا بمهـام السـيكولوچيا.

فـإذا مـا اتَّخذنـا وجهـةَ النظـر هـذه؛ تَبـيَّنَ لنـا أنـه توجـد -"إلى جانـب" ظواهـر التنفُّـس، والهضـم، وإفـراز الغُـدَد- ظواهِـرُ أخـرى، مثـل: الـزَّواج، والجرائِـم، وممارَسـة الحِـرَف، والعَمَـل بالمعنـى الصناعـي للكلمـة... إلـخ. ويتبـيَّن لنـا كذلـك أنـه يوجـد -بشـكلٍ عـامٍّ- إلى جانـب مُخطَّـط الطبيعـة مُخطَّـطٌ آخـر إنسـانيٌّ بمعنـى الكلمـة. وكلمة "إلى جانـب" ليسـت دقيقـةً تمامًا؛ لأننـا إنَّمـا نحيـا -أوَّلًا- وفـقَ المُخطَّط الإنسـاني، ويجب أن نقـوم بمجهـودٍ تجريـديٍّ خـاصٍّ لِنُخلِّـصَ الطبيعـة في شـكلها النقـيِّ، الموضوعـيِّ، مـن ثيابهـا الإنسـانيَّة.

وبنفـس الطريقـة، فـإلى جانـب الحيـاة البيولوچيـة توجـد حيـاةٌ إنسـانيَّةٌ بمعنـى الكلمـة، وهـذه الأخـيرة هـي مـا نقصدهـا حـين نقـول إن الحيـاة صعبـة عـلى بعـض النـاس، سـهلة عـلى البعـض الآخـر. وكلمـة "إلى جانـب" هنـا غـير دقيقـة مـرة أخـرى؛ لأن تجربتنـا اليوميـة المبـاشرة تقـدِّم لنـا الحيـاة في مظهرهـا الإنسـاني؛ فنحـن مُحاطـون بأشـخاصٍ وليـس بتراكيـبَ فيزيقيَّـةٍ كيميائيَّـةٍ. ولا أسـتطيع تَصـوُّرَ أصدقـائي -مَثَـلًا- لوحـاتِ تشريـحٍ إلَّا بمجهـود تجريـديٍّ كبـير. هـذه الحيـاة الإنسـانية تكـون دراما[1](وقـد اخترنـا هـذا اللفـظَ لوصفهـا لأنـه مُناسِـبٌ، ولا نسـتبقي منـه سـوى مدلولـه بوصفـه: مشـهدًا).

فَمِـمَّا لا جـدالَ فيـه أن خبراتنـا اليوميـة تضعنا -أوَّلًا، وقبـل كل شيء- مَوْضِـعَ الدِّراما. ومـا الأحـداث التـي تحـدث لنـا إلَّا أحداثًـا دراميـة. ونحـن نلعـب هـذا "الـدور" أو ذاك... إلـخ. وأن النظـرة التـي نـرى بهـا أنفسـنا نظـرة دراميـة.

---

(1) يقـول "بوليتـزر" في كتابـه "نقـد أسـس علـم النفـس" 1928 (صفحـة 23 هامـش1، وصفحـة 11 هامـش 1) في طبعـة 1967: يجـب أن يكـون مفهومًـا فَهْـمًا قاطِعًـا أننـا نقصـد بكلمـة دراما: ظاهـرة. إنَّنـا نجـرِّد هـذه الكلمـة مـن رنينهـا الرومانتيـكي، ونرجـو مـن القـارئ أن يتعـوَّد عـلى هـذا الفهـم البسـيط للكلمـة، وأن ينـسى دلالتهـا "المأسـوية".

فنحـن نعلـم أننـا قُمنـا بـدَوْرٍ أو شـاهدنا هـذا أو ذاك مـن التصرُّفـات أو المشـاهد، ونحـن نتذكَّـر قيامنـا برحلَـةٍ، أو رؤيتنـا لأُنـاسٍ يتعارَكـون في الشَّـارع، أو أنَّنـا ألقينـا خطابًـا. ومقاصِدُنـا أيضًـا دراميَّـة؛ فنحـن نريـد الـزواج أو الذهـاب إلى السـينما.

ونحن نفكر في ذواتنا بشكل درامي.

وأننـا نقيـم علاقاتنـا مـع أشـباهنا في إطـارٍ دراميٍّ؛ فالمقـاول يسـتخدم عامِـلًا، ونحـن نلعـب شـوطًا مـن التِّنـس مـع أصدقائنـا... إلـخ. وفهمنـا لبعضنـا البعـض درامـيٌّ كذلك؛ فهـا أنـا مَدعـوٌّ لتنـاوُلِ الشـاي، وأنـا قـد أقبـل وقـد أرفـض. وقـد يعـرض أَحَدُهـم رأيَـه السـياسيَّ، فأُعارِضُـه بشـدَّة، ولكننـا نتناقـش، ونحيـا في المعـاني التـي تمسُّـنا بشـكل أو بآخـر، ولكننـا لا نخـرج مـن إطـار الدرامـا في أي لحظـة.

ونحـن نعـرف بعضنـا البعـض في إطـارٍ دراميٍّ، والجانـب الدرامـي هـو وحـده الـذي يهمُّنـا في الحيـاة اليوميـة؛ فـكلُّ مـا نبحـث عـن معرفتـه هـو: كيـف يتـصرَّف فـلانٌ في موقـفٍ بعينـه، ومـا الـذي ينبغـي عملـه حتـى يتـصرَّف عـلى نحـوٍ مُعيَّنٍ بـدلًا مـن نحـو آخـر، ومـا الـذي يحكيـه أحدنـا للآخـر؟ أو -مثـلًا- أن السَّـيِّدَ فـلان الشـاب، حَسَـن الطَّلعَـة، الـذَّكِيّ، الـثَّرِيّ- قـد تـزوَّج فلانـة، العجـوز، القبيحـة، الغبيَّـة، الفقـيرة... إلـخ: هـذا هـو مـا نسـعى إلى فهمـه.



-6-

ومـع أنَّ الدرامـا تكـون في مواجهـة الطبيعـة مجـالًا أصيـلًا تمامًـا، فـإن هـذه الأصالـة ليسـت جوهـرًا substance يجـب أن نسـتحدث لـه كيانًـا ميتافيزيقيًّـا لم يسـبق وجـوده؛ فالـزَّواج يحـدث في المـكان، كالهضـم، والتَّنفُّس، سـواءً بسـواء، وكذلـك الجرائم، والحماقـات، والحيـاة الدراميـة، بشـكلٍ عـام. وبالتـالي فـإن الخـبرة الدراميـة ذاتهـا لا تتضمَّـن إدراكًا فريـدًا في نوعـه sui generis غـير الإدراك العـادي.

ومـمَّا لا جـدال فيـه أنـه توجـد في الدرامـا مـادَّةٌ لِعلْـم أصيـل مُبتَكَـر، فعلـوم الطبيعـة التـي تهتـمُّ بالإنسـان إنمـا تـدرس في الحقيقـة مـا يتبقَّـى عندمـا نُجرِّد الإنسـان مـن صفتـه الدراميـة، إلَّا أن ارتبـاط كافَّـة الأحـداث الإنسـانية بمعنـى الكلمـة، ومراحـل

حياتنا، وأهدافنا، ومجموع الأشياء الخاصة جدًّا التي تحدُثُ لنا فيما بين الميلاد والموت- تكون مجالًا مُحدَّدًا تمامًا، من السهل التَّعرُّف عليه، ولا يختلط بوظائف الأعضاء، وهو قابِلٌ للدراسة لأنه لا يوجد سببٌ واحد يجعلنا نفترض أن هذه الحقيقة تُفلِتُ بأعجوبة من كل حتميَّة؛ فنحن في حاجة لمعرفة لماذا اقترف هذا الإنسان تلك الجريمة في تلك اللحظة، وما الذي جعل السيد فلان الشاب، الوسيم، الذكي، الثري يتزوَّج فلانة العجوز، القبيحة المنظر، الغبية، الفقيرة، ولماذا تبدو الأحداث وكأنها تضطهد فلانًا، بينما يُفْلِتُ غيره من مآزِقَ أشدَّ صعوبةً... إلخ.

ومن الواضح أيضًا أن العلوم المسمَّاة "أخلاقية" (علوم الإنسان)، كالتاريخ والاجتماع أو الاقتصاد السياسي- غيرُ قادِرَةٍ على الإجابة **(وحدها)** عن هذه الأسئلة. فإذا كان التاريخ وعلم الاجتماع علومًا درامية، فإنها لا تتناول إلَّا الإطارَ العام الذي تجري داخله دراما كلِّ جيل، والمواضيع العامة التي تكون الأحداثُ الدراميَّةُ أشكالَها الخاصَّة. ولكن الأحداث الدرامية لها دائمًا "هنا والآن"[1] أشكالُها الخاصَّة التي لا يمكن للتاريخ أو الاجتماع أن يفسِّرها، فالسيد "س" لم يكن ليتزوَّج الآنسة "ع" إذا لم يكن الزَّواجُ في بيئتنا نظامًا اجتماعيًا. إلَّا أن تقرير هذه الحقيقة لا يُحدِّدُ الدراما في نوعيتها الفردية. كذلك يبيِّن لنا الاقتصاد السياسيُّ الظروفَ الاقتصاديَّةَ للجريمة، ولماذا يتحتَّم أن تُوجَدَ الجرائِمُ في المجتمعات البورجوازية، ولكنه لا يُبيِّن لنا لماذا يرتكب شَخصٌ بِعَيْنِه جريمةً بِعَيْنِها.

فعلوم الطبيعة لا تدرس إلا "الميزانسين" الماديَّ للدراما، والعلوم "الأخلاقية" لا تهتمُّ إلا بالإطار العام والدوافع الأكثر عمومية، فيوجد إذًا مكانٌ لِعِلْمٍ بِعَيْنِه يَدرُسُ الدراما في واقعها وخصوصيتها المحدَّدة.

ويبدو -فضلًا عن ذلك- أن هذا العلم لن يُختَرَعَ، أو -على الأقل- لن يُختَرَعَ بأكمله؛ لأننا نجد تحقُّقًا أوَّليًا له في تاريخٍ طويل من التقاليد المعروفة لنا جيِّدًا. ففي الملاحظات التي نستطيع جَمْعَها من خبراتنا الدرامية، وفي التَّواتُرِ الذي نلحظه فيها يقيم كلٌّ منَّا لنفسه في الواقع نوعًا من "الحكمة" تختلف درجَةُ

---

[1] hic et nunc اصطلاح لاتينيٌ، معناه الحرفي: "هنا، والآن". ويقصد به: الخصائص المكانية والزمانية وما إليها لموقفٍ بعينه، أو أحداثٍ بعينها.

عُمقِها وصِحَّتِها، وهي ما نُسمِّيها بـ "المعرفة العملية بالإنسان")[1] Praktiche menschenkenntnis.

وهي تتعلَّق بالدراما فقط على وجه الخصوص. وهذه "الحكمة" ليست مجرد مجموعة من المعارف الخاصَّة بحقيقةٍ أخرى غير الطبيعة، توصَّلنا إليها بإدراكٍ يختلف عن الإدراك العادي، ولها ميزةُ النَّفاذِ إلى طبيعة ثانية. إنها ليست إلا تعميقًا مُعيَّنًا لخبراتنا الدرامية المباشرة، فالتاجر يضع على سلعته "السعر 95"، والرجل المُجرِّب يقول: "اتْبَعْ المرأةَ تَهْرُبْ مِنك، واهْرَبْ من المَرأةِ تَتْبَعْكَ". هذا الأسلوب وهذه التقريرات ناتجة عن استقراءٍ لا يخرج عن نطاق الدراما في أي لحظة. والأمر كذلك في الأدب والمسرح، فليس الأمر في الرواية ولا في المسرح سَردًا لأحداثٍ تدور حول عمليات فريدة في نوعها يكون الممثِّلون فيها شخصيَّاتٍ غيرَ مألوفة في الخبرة الإنسانية، بل على العكس، نجدها تقتطع من الخبرة العامَّة أجزاء لها دلالة خاصَّة، وتُقدِّم للنَّظَّارة أشخاصًا تعيش وتضطرب في الحياة.

إلَّا أن هذه التقاليد الدرامية ليست بَعْدُ عِلمًا؛ فالمعرفة العملية بالإنسان فيها كُلُّ نقائص التجريبية "البدائية"؛ فعمليَّاتها غير مُنظَّمة، وتَنقُصُها الدِّقَّة، ومليئةٌ بالأحكام المُسبَقَة، الأخلاقية والاجتماعية. ويبدو -زيادةً على ذلك- أنها لم تُحرِزْ أيَّ تَقدُّمٍ منذ قرونٍ؛ ممَّا دعا إلى القول بأن الإنسان ظَلَّ كما هو، أمَّا بالنسبة للأدب والمسرح فقد عاشا على نفس هذه الأُسُسِ تقريبًا، أو اكْتَفَيا بتتبُّعِ تطوُّرِ الإنسان كما تُحدِّده الظروف الاجتماعية والاقتصادية، مُقدِّمين رُؤًى لا تحليلاتٍ، أي: فنًّا لا عِلمًا.

ويبدو أن المشكلة تتلخَّص في انتقال تقاليد المعرفة التجريبية بالإنسان من مرحلة "التجريبية"[2] empirisme إلى مرحلة العلم الوضعيِّ.

وهنا نقابل السيكولوچيا كما جاءت تاريخيًّا. فهي تدَّعي أنها حاوَلَت إنجازَ هذا الانتقال. فالسيكولوچيا -كما يؤكِّد السيكولوچيُّون- هي التي رَفَعَت المعرفةَ العَمليَّةَ بالإنسان. **Prakische menschenkenntnis** إلى مستوى العلم؛ لأنها

(1) اصطلاح ألماني ذائع في الفرنسية والإنجليزية، يُقصَدُ به: القدرة التلقائية لفهم "نفسيَّة" الناس في الحياة العملية.
(2) المقصود بـ "التجريبية" هنا: المعرفة المباشرة الغُفل، "قبل- العلمية".

هـي التـي نظَّمَـت بشـكلٍ أعمـقَ خبراتِنـا اليوميَّـةَ المتعلِّقَـةَ بالإنسـان، مثلـما نظَّمَـت الفيزيـاءُ تعميقًـا منهجيًّـا لخبراتنـا اليوميـة بالطبيعـة.

-7-

إلَّا أنَّنـا دُهِشْـنا عندمـا تبيَّن لنـا أن السـيكولوچيا تسـتوحي -بالرَّغـم مـن تأكيداتهـا- مفاهيـمَ مختلفـةً تمامًـا عـن تلـك التـي جعلتنـا نـرى ضرورة قيـام علـمٍ جديـد بـين علـوم الإنسـان.

فالخـبرات التـي تُحدِّثنـا السـيكولوچيا (الكلاسـيكية) عنهـا مُختلفـةٌ تمامًـا عـن الخبرة الدراميـة؛ فخبراتنـا الدراميـة هـي الحيـاة بالمعنـى الإنسـاني للكَلِمَـة، وشـخصياتها رجـالٌ يضطربـون في الحيـاة بشـكل أو بآخـر. وحتـى مسـرح أحداثهـا الجزئيـة يتضمَّن الإنسـانَ في شـموله. أمَّـا الخـبرات التـي تُقدِّمهـا لنـا السـيكولوچيا فتتكـوَّن مـن عملياتٍ ليـس لهـا شَـكلُ أفعالِنـا اليوميـة. وهـي في الواقـع تقـول لنـا إن "التطـوُّرات ترتبـط ببعضهـا البعـض"، و"الميـول تسـتيقظ"، و"الغرائـز تُسـتَثار". وبـدلًا مـن الأحـداث الإنسـانية نجـد عمليَّـاتٍ يُؤكِّـدون لنـا أنهـا مُقتَطَعـةٌ مـن واقـعٍ فريـدٍ، هـو: الواقـع الروحـي، فبـدلًا مـن الدرامـا الإنسـانية نجـد درامـا أخـرى تـؤدِّي أدوارَهـا شـخصيَّاتٌ مجهولـةٌ لا تشـبهنا في شـئ: تصـوُّرات، وصـور، وغرائـز.

ومـن المسـتحيل أن نتعـرَّف عـلى أنفسـنا فيـما ترويـه السـيكولوچيا؛ لأنهـا ليسـت مُعطَياتٍ عـن حـوادِثَ إنسـانيَّةٍ. "اسـتيقظتُ مبكِّـرًا في الصبـاح للقيـام بنزهـة في الغابة، وقابَلـتُ هنـاك الحـارسَ الريفـيَّ الـذي قـال لي: (لقـد تغـيَّرَت غابَـةُ [فِنْسـين] عـمَّا كانت عليـه منـذ ثـلاث سـنوات، وعـمَّا قريـبٍ سـيصبح شـأنُها شـأنَ قَلـبِ باريـس)". نسـتطيع جميعًـا أن نتخيَّـل وأن نتقمَّـص شـخصيات هـذه الحكايـة. ولكـن مـا تقدِّمـه لنـا السـيكولوچيا ليـس سَرْدًا عـن أشـخاصٍ، ولكنَّـه سَردٌ عـن أشـياء. "وَجَـدَ أحـدُ التَّصـوُّرات نفسـه بالأمـس مُلاصِقًـا لتصـوُّرٍ آخـرَ، وعـاد اليـوم إلى الشـعور، واصطحـبَ الثَّـاني معـه". لا يسـتطيع أحـدٌ أن يتمثَّـل المنظـرَ الـذي يحـدث هنـا؛ فعبـاراتُ هـذا السَّردِ ليسـت لهـا أيُّ دلالَـةٍ إنسـانيَّة.

وعلى العكس، فإن البناءَ المنطقيَّ للخطوات التي أدَّت إلى المفهومات والعلاقات المُتضمَّنَة في هذا السرد الأخير يمكن أن تَنطبِقَ هي نفسُها على أيِّ ظاهِرَةٍ أخرى من ظواهر الطبيعة: الذَّرَّات، أو الحجارة، أو الأخشاب. وهذا هو ما أدركه "هيوم" عندما قال إن قانون الارتباط بالنسبة للظواهر العقلية مثله مثل قانون الجاذبية العام بالنسبة لظواهر الطبيعة.

وهكذا نَجِدُ -بعبارةٍ أخرى- أن السيكولوچيا قد أقامت، بجانب الطبيعة، طبيعةً أخرى موازِيةً لها، تتكوَّن هي أيضًا من ظواهر وعمليات فريدة في نوعها sui generh. ففي مقابل دراسة الواقع الفيزيقي -بما هو واقعٌ- توجد دراسةً الواقع (السيكولوچي) المتفرِّد بما هو كذلك، وفي مقابل ظواهر الطبيعة توجد ظواهر الروح، وفي مقابل فيزيقا الظواهر الطبيعية توجد "فيزيقا" التصوُّرات. وقد بدأت السيكولوچيا الحديثة -شأنها شأن الفيزياء الحديثة- بالميكانزم، لتتَّجِه بعد ذلك إلى الديناميَّة. وهكذا نجد إلى جانب الفيزياء فيزياءَ أخرى.

وتستبدل هذه الفيزياء الثانية بمجموع البشر الذين يقوم كلٌّ منهم بمفرده بِدَورٍ في الدراما، تستبدل بهم عالَمَ العمليَّات الروحيَّةَ الفريد، تمامًا كما استبدلت الفيزياءُ العالَمَ الفريدَ للمادَّة بمجموعِ الآلِهَةِ والجِنِّيَّات وآلِهَة الحقول. وبدلًا من النَّسَق الذي تتوزَّع به الدراما على مجموع الشخصيَّات الفرديَّة والأحداث الدرامية، تناوَلَت السيكولوچيا المظاهِرَ الكُبرى للطَّبيعة الرُّوحيَّة: الإدراك الحسِّي، الذاكرة، الإرداة والذكاء. وكرَّسَت نفسها لدراستها، كما كَرَّسَت الفيزياءُ نفسَها لدراسة المظاهر الكبرى للطبيعة: الحركة، الحرارة، الضوء والكهرباء. وبالرغم من اعتراف السيكولوچيا بالشخصيَّة لكلِّ فردٍ، فإنَّ ذلك لا يُغيِّر من تلك الطبيعة الثانية تمامًا كما لا تُغيِّر الأشكال المُعيَّنة للأشياء المادية من قوانين الميكانيكا.

فمثل الشَّخصيَّات الفردية بالنسبة للطبيعةِ الرُّوحيَّة مثل الساعة المصنوعة من الذهب بالنسبة للذهب، أو الماسة بالنسبة للماس، والمادة الكيميائية المتفرِّدَة بالنسبة لحركة الذَّرَّات.

-8-

ومهـما كان رَأيُنـا في شرعيَّـةِ التشـويه الـذي أنزلـه عِلـمُ النَّفـس بالدرامـا، فـلا شَـكَّ أن هـذا التشـويهَ يتضمَّـن اسـتخدامَ التقاليـد الإحيائيـة animisme، وإذا كان "ڤونـدت" قـد اسـتبعدَ الـرُّوحَ (مـن السـيكولوجيا)، فـإن ذلـك لم يكـن لـه إلا قِيمَـةٌ ضئيلـةٌ لأنـه لم يسـتبعد ظواهِـرَ الـرُّوح. وهكـذا نَبَعَـت "الظواهريـة"[1] phénoménisme باسـتمرارٍ مـن واقعيـة ظواهـر الـروح. وهكـذا أدَّت بنـا أُسُـسُ سـيكولوچيا الظواهـر -كـما أدَّت بنـا قبـل ذلـك ميتافيزيقـا الـرُّوح- إلى التقاليـد الإحيائيـة التـي تنتسـب إليها كُلٌّ مـن الـروح والحيـاة الداخليـة (الروحيـة).

ولا فائـدةَ هنـا عـلى الإطـلاق مـن إثـارة مشـكلةِ أصـلِ الإحيائيَّـة. والـشيء الوحيـد الـذي يهمُّنـا هـو أن المُعتَقَـدات الإحيائيَّـة لا علاقـة لهـا بمعرفـة الإنسـان كـما هـو في واقعـه الملمـوس، تمامًـا كـما أن لا علاقـة لهـا بالطبيعـة؛ فـما تنتمـي إليـه هـذه المُعتَقَـداتُ شيءٌ مختلـفٌ تمامًـا؛ ذلـك أن الوظائـف التـي يقـوم بهـا مفهـوم الـروح هـي في جوهرهـا وظائـف دينيـة، والمشـاكل التـي تهتـمُّ بهـا هـذه المعتقـدات هـي مـا تتعلَّـق بالحيـاة في عمومهـا، والمـوت والبدايـة والمصـير.

ومـن ناحيَـةٍ أخـرى، فـإن الخـبرة الدراميـة التـي سـبق أن وضَّحناهـا لا تسـتدعي أيَّ مُعتَقَـدٍ إحيـائيٍّ، وفضـلًا عـن ذلـك فـإن معرفـة الإنسـان لا تحتـاج إطلاقًـا معرفـةَ نظـامِ ظواهِـرِ الـرُّوح. وقـد لاحـظ السـيكولوچيُّون أنفسُـهُم ذلـك.

ولكـن يوجـد مـا هـو أكـثر مـن ذلـك. فـإن البحـوث الخصبـة حقًّـا في السـيكولوچيا الحاليـة هـي بالـذات المسـتقلَّة عـن التقاليـد الرئيسـية للسـيكولوچيا الكلاسـيكية، مثـل علـم النفـس الصناعـي. فالبحـث في كيـف تؤثِّـر الإضـاءة عـلى العمـل لا يتضمَّـن أيَّ فَـرْضٍ خـاصٍّ بالحيـاة الداخليـة للعامـل. وكذلـك تقريـر أن اتِّخـاذ الأدوات هـذا الشَّـكلَ أو ذاك يزيـد أو يُقلِّـلُ بنسـبة مُعيَّنَـةٍ مـن إنتاجيَّـة العمـل.

---

(1) لا يقصـد "بوليتـزر" بهـذه الكلمـة مَذهـبَ "هـوسرل" وأتباعـه، وإنمـا يقصـد بهـا المعنـى اللغـويَّ العـادي للكلمـة، أي حـدوث الظواهـر.

ومـن ناحيـة أخـرى، فـإن "سـتاندال" أو "دوستويفسـكي" لم يكونـا سـيكولوجيّيْن بفضـل أبحاثهـم في ظواهـر الـروح، بـل -عـلى العكـس- يُمكِنُنـا القَـولُ إنَّ الروايـات والمسرحيـات الرديئـة هـي التـي تتأثَّـر بالـذات بالنظـام الـذي ذكرنـاه (ظواهـر الـروح). وعـلى أي حـال، فالمـرء لا يتخطَّـى الـدلالات الإنسـانيَّةَ عنـد قـراءة روايـة أو مُشـاهَدَةِ مسرحيَّـة؛ ففَهْـمُ الـدلالات الإنسـانية شيءٌ، واصطنـاع الفـروض حـول العمليـات الداخليـة (الروحيـة) شيءٌ آخـر. وشرح المَنْظَـرِ الدِّرامـيِّ بمنظـرٍ دراميٍّ آخـر، وشرح الـكُلِّ عـن طريـق عمليـات العالَـمِ الرُّوحـيِّ- يُمثِّـلان أُسـلوبَيْن في المعالَجَـة، مُختَلِفَـيْن تمامًـا.

وهكـذا، فبـدلًا مـن أن نجـد في السـيكولوچيا -ببسـاطَةٍ- تنظيـمًا أرقـى للمعرفـة العمليـة بالإنسـان؛ نجـد أنفسـنا أمـام موقِفَـيْن مختلفـين: أحدهـما الموقـف الدرامـي المتمثِّـل في المعرفـة العمليـة بالإنسـان، وفي الأدب والمـسرح. والآخـر: الموقـف الإحيـائي. الموقـف الأول هـو وحـده الـذي يتعلَّـق بالدرامـا، بينـما الـروح -لا الإنسـان- هـي مركـز الثـاني.

وقـد التقـى هـذان التُّراثـان في لحظـة معيَّنـة، ومـن المفيـد أن نعـرف لمـاذا تَـمَّ هـذا اللقـاء. مـن الواضـح أن الـتراث الدرامـي لم يكـن بحاجَـةٍ إلى الـتراث الإحيـائي، وخـير دليـلٍ عـلى ذلـك أنـه رغـم سـيطرة الـتُّراث الإحيـائيِّ لمـدَّةِ قُـرونٍ، وضَغْطِـه عـلى الـتراث الدرامـي، فـإنَّ هـذا الأخـير اسـتطاع أن يحافـظ عـلى نفسـه بدرجـة نسـبيَّةٍ مـن النَّقـاء. وقـد ظلَّـت المعرفـة العَمليَّـةُ بالإنسـان -ولا زالـت- دائمًـا خـارجَ نطـاق السـيكولوچيا "الرسـمية"، وذلـك رغـم جهـود بعـض السـيكولوچيِّين الذيـن أقلقتهـم كفاءَتُهـا؛ فاضطـرُّوا إلى إقامـة الصِّلاتِ بهـا؛ حتـى تبـدو السـيكولوچيا الرسـمية هـي التنظيـم العلمـي للمعرفـة العمليـة بالإنسـان. أمَّـا بالنسـبة للروايـة والمـسرح فـإن البحـث عـن المظهـر العلمـي scientisme -عـلى قِلَّـة جَـدواه- هـو الـذي سـاق في الآوِنَـةِ الأخـيرة رجـالَ الأدبِ نحـو السـيكولوچيا.

وعـلى العكـس، فـإنَّ الـتراث الإحيـائي كان يحتـاج دائمًـا إلى الـتراث الدرامـي؛ فقـد حاولـت كافَّـةُ التقاليـد الميتافيزيقيـة أن تتخطَّـى الشَّـكلَ الأسـطوريَّ البحـتَ الـذي ظهـرت بـه أوَّلًا، وحاوَلَـت أن تفـرِضَ نفسَـها كتفسـيراتٍ فِعليَّـةٍ للواقـع. كـما أن الـتراث الإحيـائي اضطـرَّ -لـكي يعطـي نفسَـه وَجهًـا إيجابيًـا- أن ينقـل مُعطَيـاتِ المعرفـة العَمليَّـة بالإنسـان إلى ميدانـه، ويترجمهـا في لغـة إحيائيَّـةٍ. وبفضـل الربـاط بـين الـتراث الإحيـائي والديـن احتـلَّ هـذا النقـل[1] مركـزَ الصَّـدارة، وهكـذا حَـلَّ الـتراُثُ الإحيـائيُّ تمامًـا محـلَّ الاهتـمام الدرامـي.

(1) transposition.

وكان هـذا يتَّفِقُ في المقـام الأول مـع الاتجـاه المسـيحيِّ للتفكـير الغـربي، الـذي ارتبطـت بـه الفلسـفةُ نهائيًـا. إن الاهتـمام بالدرامـا لا شـأنَ لـه بمشـكلات الخلـود والخـلاص اللَّذَيْـن كانـا مَحـطَّ اهتـمام الإحيائيِّـين.

وفي النهايـة، فـإن كل هـذا النظـام الـذي انتهـى بالانفصـال عـن الفلسـفة تحـت اسـم السـيكولوچيا لم يكـن لـه مـن عَمَـلٍ إلَّا النقـل (الـذي سَـبَقَت الإشـارةُ إليـه) عـلى نحـوٍ يـزداد انتظامًـا ودقَّـةً، ولكنـه خاضِـعٌ دائمًـا للاهتمامـات الإحيائيـة.

وكان مـن الممكـن أن يتمـشَّى انتقـال الاهتـمام مـن الدرامـا إلى الإحيائية، مع السـيكولوچيا العلميـة، بـأن تـؤدِّي الإحيائيَّـةُ في السـيكولوچيا دَوْرَ الفَـرْضِ الخصب.

فـكُلُّ الحِيَـلِ والفُـرَص العلميـة، رغـم مـا يبـدو مـن أنَّهـا تُشـوِّه وقائِـعَ الخِـبرَةِ المبـاشرة، فـإنَّ سِـمَتَها الأساسـية أنهـا تسـمح بالحصـول عـلى معـارِفَ جديـدةٍ، وتقـودُ العُلـومَ -بشـكلٍ عـامٍّ- مـن الشـكل الميثولوچـي إلى الواقـع. أمَّـا الإحيائيـة فعـلى العكـس؛ بـدا أنهـا تقـود السـيكولوچيا في الطريـق المُضـاد.

فهـي -أوَّلًا- لم تحمـل إلى المعرفـة العمليـة بالإنسـان أيَّ معرفـة جديـدة، بـل إن الإحيائيَّـة نفسـها صـارت تعيـش معيشـةً طُفيليَّـةً، وذلـك عـن طريـق النقـل (المشـار إليـه آنِفًـا). إن المعرفـة العَمَليَّـة الصحيحـة بالإنسـان أَتَـت دائمًـا عـن طريـق الخـبرة الدراميـة. ولا يُمثِّـل الـتُّراثُ الإحيـائيُّ في الحقيقـة أيَّ معرفـة فعليَّـةٍ بالإنسـان؛ لأنهـا ليسـت إلَّا نظريَّـةً ذاتَ مفهـومٍ واحـد، خُطَّـة كبـيرة للتفسـير، لا تسـتطيع أن تَدلَّنـا كيـف يمكـن الحصـول عـلى معـارِفَ جديـدة، وإنمـا تعـرف فقـط كيـف تعطـي شـكلًا مُعيَّنًـا للمعـارف المُسـتقاةِ مـن مصـادِرَ أخـرى.

والواقـع أن السـيكولوچيا عاشـت خـلال قـرونٍ عـلى نفـس أُسُـسِ المعرفـة الوضعيَّـة. فبينـما أصبحـت الأعـمال الفكريـة لعمليَّـة النقـل أكـثرَ دِقَّـةً، ظلَّـت المعرفـة العملية بالإنسـان عنـد نفـس النقطـة؛ لأن المشـكلة ظلَّـت هـي معرفـة كيـف يجـب إنجـازُ النَّقـل. وهـذا هـو السـبب في أنـه منـذ "أرسـطو" حتـى "ڤونـدت" لم تَكتَشِـفْ السـيكولوچيا ظاهـرةً جديـدةً واحـدة. أمَّـا بالنسـبة لـ "ڤونـدت" فـما هـي الظاهـرة الجديـدة التـي اكتشـفها؟ نحـن لا نـرى لديـه ظاهـرةً سـيكولوچيَّةً واحـدة لم يَـرِدْ ذِكْرُهـا بطريقَـةٍ أو بأخـرى في الـتُّراثِ اللُّغـويِّ، أو معروفـةً مـن قبـل لفلاسـفة العصـور الوُسـطَى. أمَّـا مَـن يُسـمُّونه مُصْلِـحَ السـيكولوچيا الحديثـة: "برچسـون"، فهـل قـدَّم لنـا ظاهِـرةً سـيكولوچيَّةً جديـدةً تسـتحقُّ هـذا الاسـم؟

علـى العكـس: مـن السـهل أن نـرى -إذا مـا اسـتبعدنا مسـائِلَ النَّقـل- أنّـه سـار عـلى نفـس أُسُـسِ المعرفـة التـي سـار عليهـا سـابِقُوه.

إن هـذه الصفـة الطُّفَيليّـة، والتـي لا تحمـل عـلى البحـث "antiheurisitique"، لِلنَّقـل، هـي التـي أضاعـت عـلى "ڤونـدت" وغـيره مـن المؤلِّفـين فرصـة الانتقـال مـن السـيكولوچيا "قبـل- العلميـة" إلى السـيكولوچيا العلميـة؛ ذلـك أنهـم أرادوا إضفـاءَ الشَّـكل العلمـي عـلى إطـاراتِ وصِيَـغ النَّقـلِ، دون أن يشـغلوا بالَهـم بـأنَّ المعـارِفَ الفعليَّـةَ التـي نجدهـا في أسـاس النَّقـل لا زالـت "قبـل- علميـة"؛ لأنهـا -ببسـاطَةٍ- جُمِعَـت بواسـطة العمليَّـات البدائيَّـة للمعرفـة العمليَّـة بالإنسـان. وهـذا هـو -مَثـلًا- حـالُ كُلِّ النظريـات "العلميـة" عـن الحُلْـمِ، التـي تحـاول الوصـولَ إلى تفسـيرٍ فيزيقـيٍّ كيميـائيٍّ للحُلـم، بوصفـه عاطِـلًا عـن المعنـى، بينـما أثبَتَـت الأسـاليبُ التقليديَّـةُ للمعرفـة العَمَليَّـة بالإنسـان بعـد صَقْلِهـا صَقْـلًا بسـيطًا؛ أثبَتَـت أنَّ للحُلْـمِ مَعنًـى.

وهـذا ليـس كل مـا في الأمـر، فكـما سـبق لنـا القـول، يتضمَّـن النَّقـلُ الإحيـائيُّ أن تسـتبدل بالدرامـا عـالَم الـروح وظواهرهـا، أي نسـتبدل بهـا طبيعـة ثانيـة، وأن هـدف النقـل هـو التعبـير عـن الدرامـا بعبـارات الطبيعـة الثانيـة هـذه، إلَّا أنـه لا يوجد أيُّ تشـابُهٍ بين المسـتوى الإنسـاني والعـالم الروحـي؛ لذلـك وجـب اخـتراع إجـراءاتٍ تسـمح بالذهـاب والإيـاب بـين الاثنـين، وتحويـل الدرامـا إلى طبيعـة (ثانيـة).

وَجَـبَ إذًا تحويـلُ الأحـداث الدراميـة إلى عمليَّـاتٍ رُوحيَّـة. ولمَّـا كان كلُّ قطـاعٍ درامـيٍّ يتضمَّـن -بالإضافـة إلى مَشـهديَّته، "الميزانسـين" المادِّيَّـة- دلالَـةً تعطيـه قيمَتَـه الدِّراميَّـة، فقـد انصَـبَّ اهتـمام السـيكولوچيا عـلى هـذه الـدلالات الدراميـة لتحويلهـا إلى عمليـات روحيـة.

فهنـاك مجموعـةٌ كاملـة مـن النظريـات الأساسـية في السـيكولوچيا الكلاسـيكية لا هَـدَفَ لهـا إلَّا العمـل عـلى تحويـل الـدلالات إلى عمليـات. وهـذه هـي -مَثَـلًا- حالَـةُ قضيَّـةِ التَّـوازي بـين اللغـة والفكـر، فهـي تسـمح بتحويـل قواعـد اللغـة -قَبْليًّـا a-priori– إلى سـيكولوچيا، والأمـر بالمثـل في "النزعـة السـيكولوچية" psychologisme؛ فالسـيكولوچيا ليسـت في الواقـع إلَّا ارتـدادًا إلى المنطـق، مـن حيـث إن السـيكولوچيين أقامـوا سـيكولوچيا الفكـر بـأن نقلـوا -قَبْلِيًّـا- المنطـقَ إلى عمليـات روحيـة، وسَـعَوا لإضفـاءِ الشَّرعيَّـة على هـذه العمليـة، باعتبارهـم إيَّاهـا نَوعًـا مـن البديهيـات axiome. ووقـع المَناطِقَـةُ مـن أنصـار[1] "النزعـة السـيكولوچية"

(1) النزعة السيكولوجية هي المَيْلُ إلى تفسير كلِّ شيءٍ تفسيرًا نفسيًّا.

-ببساطةٍ- ضحايا لزَيْف السيكولوجيِّين الذين لم يُقرِّروا أن المنطق إنما هو سيكولوجيا الفكر، إلا ليستطيعوا أن يبحثوا عن سيكولوجيا الفكر في المنطق.

وواقعيَّة "الحياة الروحية" تعني بدورها خطوةً أخرى، فالدلالة متى فُطِنَ إليها اعْتُبِرَت كغَيرِها من الوقائع، أي أصبحت "شيئًا"؛ وبذلك تُنتَزَعُ من نظام العلاقات الدراميَّة، وتوضَعُ تَحتَ سلطانِ العلاقات الظَّواهريَّة phenomenal، كتلك التي تُستَخدَمُ في علوم الطبيعة.

وهكذا تُغيِّر الدراما شخصيَّاتِها، فبعد أن كان المُمثِّلُ الوحيد المُمكِنُ للخبرات الدرامية هو الفرد المفرد، فإنَّ خطوات الواقعية (الروحية) تُحوِّلُ كُلَّ منتجات هذه الخطوات إلى "ممثِّلين". وهكذا، بدلًا من الحصول على المجموع الدرامي، نحصل على مجموعٍ آخر، لا تستطيع سوى اللُّغَةِ المُقتَبَسَةِ من الطبيعة الأولى أن تعطي لموضوعه معنًى. فلم نَعُدْ نبحث مسألةَ إنسانٍ قَتَلَ إنسانًا آخر، وإنما نبحث أَثَرَ تَصوُّرٍ مُعيَّنٍ على تصوُّرٍ آخر، العلاقات الميكانيكية، والدينامية، والحيوية، والاقتصادية... إلخ، القائمة بين الظواهر النفسية، وتسلسلهل واندماجها: أي نستبدل بتاريخ الأشخاصِ تاريخَ الأشياء.

وبتعبيرٍ آخر، فإنَّ الواقعية الرُّوحيَّة مُضطرَّة إلى إلغاءِ الدِّراما بتحطيم المجموعات الدرامية، وبتقديم الوقائعيَّات في حَدِّ ذاتها، ومن أجل ذاتها. وهذه الخطوة الأخيرة هي ما نطلق عليه التجريد. فنحن نقول إن السيكولوجيا التي تستبدل بتاريخ الأشخاصِ تاريخَ الأشياء، والتي تلغي الإنسان وتُقيمُ مَكانَه العمليَّاتِ، والتي تَهجُرُ المجموعَ الدِّراميَّ للأفراد إلى المجموع اللاشخصي للظواهر- هي سيكولوجيا مجرَّدة (تتَّصِف بالتَّجريد).

والتجريد المُتضمَّن في الواقعية الروحية يتضمَّن بدوره "الشكليَّة" formalisme. فبينما تُرجِعُ الخِبرَةُ الدراميَّةُ كُلَّ شيء إلى المستوى الإنساني وإلى الفرد الذي يمارس الحياة، فإن الدراسة الواقعية الروحية والمجرَّدة لا تستطيع إلَّا دراسة "الظواهر النفسية". وهي تدرس الظواهر النفسية كما تدرس الظواهر عامَّةً: بطريق التصنيف إلى فئات، من حيث إنه لا يوجد عِلْمٌ إلَّا بالعام. فعِوضًا عن الاعتبار الدرامي للأفراد، نجد السيكولوجيا بوصفها عِلْمَ مَفهوماتِ الفئات.

ولقد ركَّزَت السيكولوجيا الكلاسيكية منذ "ڤوندت" حتَّى "برچسون" كُلَّ انطباعها على الفئات الكبرى للظواهر النفسية: الإدراك الحِسِّيّ، الصُّوَر، الانفعالات... إلخ.

أمَّـا في مواجهـة الحـدث الدرامـي فلـم يكـن لـدى السـيكولوچيِّين سـوى اهتمامـاتٍ شـكليَّةٍ: مـا هـو دور الصُّوَر في الحلـم، ودور الإحساسـات، والعواطـف؟ هـذه هـي المشكلة النموذجيـة في السـيكولوچيا الكلاسـيكية، فهـي تلغـي الدلالـة الخاصَّـة للظاهـرة التـي تنشـغل بهـا، ولا تحتفـظ إلَّا بالشـكل: وهـذا هـو مـا نُسـمِّيه بالشـكلية؛ فنحـن نعتـبر أن كلَّ سـيكولوچيا يسـير بَحْثُهـا وفـقَ مَفهومـاتِ الفئـات التقليديـة، والتـي تَطـرَحُ مُشـكلاتِها بواسـطة هـذه المَفهومـاتِ: سـيكولوچيا شـكليَّة.

وبواسـطة الواقِعيَّـةِ الرُّوحيَّـة، والتجريـد، والشَّـكليَّة، حـدث النقـل مـن الدرامـا إلى العمليـات الروحيـة. وهـذا هـو السـبب في أنـه مـن الصعـب إقامَـةُ سـيكولوچيا جديـدة حقًّـا عـلى أسـاس نَفْـيِ خُطـوةٍ كالتحليـل إلى عنـاصر؛ إذ إنَّ هـذا التحليـل لا يتنـاول الأُسُـسَ نفسـها، إنمـا يتنـاول النتائـج.

-9-

والواضِـحُ الآن أن هـذا النَّقـلَ لا يُمثِّـلُ -بـأيِّ حـالٍ مـن الأحـوال- توفـيرًا ميتافيزيقيًّـا؛ فنحـن -بالتأكيـد- لا نتحـوَّل مـن تَـرَفٍ ميتافيزيقـيٍّ إلى اقتصـاد ميتافيزيقـي باسـتخدام النقـل السـابق الذِّكـر.

فنتيجـة هـذا النقـل كُلِّـه هـي إعـادة ربـط الخـبرة الدراميـة بتقاليـدَ لا شَـكَّ أنهـا ميتافيزيقيـة. وهكـذا تجـد دراسـةُ الإنسـان نفسَـها وقـد تعقَّـدَت مـن جـرَّاء المشـاكل التـي تـدور حـول الـروح، إلَّا أنـه في وسـعنا أن نكـون في غِنًـى عـن ذلـك، فهـا هـي الدرامـا، فَلِـمَ -بُغيَـةَ دراسـتنا لهـا- نُفَتِّتُهـا إلى آلاف القِطَـعِ، ثـم نبنـي بعـد ذلـك فُسَيْفِسـاءَ mosaique (موزاييـك) مُختَلِفًـا؟ مـا معنـى بعـد أن أتبـيَّن أنَّنـي أكتب بشـكلٍ أفضـلَ عـلى الـورق الأبيـض بالقيـاس إلى الأصفـر، أن أقـول إن خَطِّـي أحسَـنُ بالقلـم الثقيـل عنـه بالقلـم الخفيـف، وأن بي هـذا أو ذلـك مـن الخـبرات الداخليـة، حيـث السـهولة والصعوبـة مُعاشَـةٌ عـلى نحـو مُخالِـفٍ لأيِّ مُعـاشٍ آخـر؟ مـا الـذي يسـتفيده مَـن يريـد أن يعـرف طريقتـي في العمـل مـن "أن يحيـا مـرَّةً أخـرى في تعاطُـفٍ" هـذه السُّـهولاتِ أو الصُّعوبـاتِ؟ الأفضـل أن نهتـمَّ بالعمليـات التـي تسـمح لنـا أن نتخطَّـى

هـذه العموميَّـاتِ في موضـع العمـل؛ فالنَّقـلُ يقودنـا مِـمَّا هـو ميتافيزيقـيٌّ عـلى نحـو طفيـفٍ إلى مـا هـو ميتافيزيقـيٌّ عـلى نحـوٍ أعظـمَ، دون فائـدة.

والأمـر الجوهـري أن هـذه المنجـزات لا تَصِـحُّ في الأذهـان؛ فالحقائـق الوحيـدة هـي الطبيعـة الفيزيقيـة مـن ناحيـة، والدرامـا مـن ناحيـة أخـرى، وبينهـما تُريـدُ مُنجَـزاتُ السـيكولوچيا أن تَنـدَسَّ، إلَّا أنـه لا يوجـد بينهـما مـكانٌ لدرامـا ليسـت درامـا لأنهـا تريـد أن تكـون طبيعـة، ولا يوجـد مـكان لطبيعـة ليسـت طبيعـةً لأنهـا تريـد أن تكـون درامـا.

فالنَّقـلُ لا يقودنـا مـن ميتافيزيقـا طَفيفـةٍ إلى ميتافيزيقـا مُسـتَفحِلَة، إلَّا لأنـه يريدنـا أن ننتقـل مـن الحقيقـيِّ إلى "الأسـطوري"، فهـو يقودنـا في الحقيقـة إلى تصـوُّرٍ للدرامـا يلغـي الواقـع.

-10-

ونَصِـلُ في النهايـة إلى شَـكلَيْن مـن السـيكولوچيا. إلَّا أن التَّعـارُضَ بـين هـذه الشـكلين ليـس تعارُضًـا بـين شـكلين يحتمـلان الصِّـدقَ، بـل بـين شـكلَيْن أحدهـما صـادِقٌ والآخـر ليـس بـه شيء مـن الصـدق.

والأوَّل هـو الدراسـة المبـاشرة للدرامـا، والثـاني هـو الدراسـة غـير المبـاشرة. الأول يـدرس الدرامـا ذاتَهـا عـن طريـق العمليـات العاديـة للمعرفـة العمليَّـة بالإنسـان، الآخـر يَـدرُسُ "نقـلًا" للدِّرامـا عـن طريـق عمليـات هـي -وفقًـا للهـدف الأول الـذي يحرِّكهـا- ملائِمَـةٌ لدراسـة نتائـج هـذا النقـل. وفي ثناياهـا تنـدسُّ بالصُّدفَـة عمليَّـاتُ دراسـةِ الدِّرامـا ذاتهـا.

وهـذان الشـكلان مـن السـيكولوچيا يَنصبَّـان عـلى نفـس الخـبرة؛ لأنـه لا يمكـن أن توجـد خِبرَتـان تسـتطيع كُلٌّ منهـما أن تولِّـد شـكلًا صحيحًـا مـن السـيكولوچيا، فـلا توجـد سـوى خـبرة واحِـدَة تُـبرِّرُ وجـودَ هـذا العلـم. لا توجـد سـوى خـبرة سـيكولوچية واحـدة؛ ألَا وهـي الدِّرامـا.

والطريقة الأولى في الدراسة ناتِجَةٌ عن دوافِعَ إحيائِيَّةٍ، وهي دوافِعُ ميتافيزيقيَّةٌ، وليست عمليَّةً. فبدلًا من الدراما نجد نَقْلًا لها في رموزٍ إحيائيَّةٍ، بواسطة مجموعة من الشخوص المجرَّدة، والشَّكليَّة. وبينما الدراما أقربُ لنا بكثير من كل هذه الرمزية للظواهر السيكولوچية، لأننا نجدها (الدراما) في خبرتنا اليومية؛ فإن هذا الشكل الأول للسيكولوچيا يحوِّلنا بلا فائدةٍ إلى نظامٍ من العمليات والمسلَّمات والمفاهيم، لا تؤدِّي بدراسة الدراما إلى أيِّ تَقدُّمٍ، ويُغرِقُ البحوثَ السيكولوچية في عُقْمِ البحثِ التَّصوُّريِّ الخالِص.

ذلك أن الرمزية العلميَّة لا تُحرِّكُها دوافِعُ غريبةٌ على العِلم، وعلى عكس النَّقل، فإنَّها تضبط وتُنظِّمُ الأبحاثَ، بأن تجعلها أكثرَ مُطابَقَةً لموضوع البحث.

فالسيكولوچيا العِلميَّة لا يمكن إلَّا أن ترجع إلى الخبرة السيكولوچية الحقيقية، وهي الدراما، وتهجر الخطوات التي بها يتمُّ النَّقل.

وعلى العكس، فإن كُلَّ سيكولوچيا تلجأ إلى النقل بطريقة أو بأخرى، والتي تَستَخدِمُ -عن وعيٍ أو عن غَيرِ وَعْيٍ، عن فِطْنَةٍ أو بدونها، إراديًّا أو لا إراديًّا- الخطواتِ التي سبق أن عَدَّدناها. هي سيكولوچيا أسطوريَّة بقدر ما تستخدم من تلك الخطوات؛ وهذا هو السبب في أننا نقول إن السيكولوچيا منذ خمسة وعشرين عامًا هي أسطورية تمامًا، وأن كافة الاتجاهات الجديدة أسطورية جزئيًّا.

على أننا لم نحصل بما قَدَّمنا إلَّا على مُعارَضَةٍ إجماليَّة (بين السيكولوچية العلميَّة حَقًّا والسيكولوچيا الأسطورية). ولكن تنشأ هنا مُشكلةٌ جديدة مُعقَّدة.

فلا يكفي لأيِّ نظام[1] لكي يصبح عِلماً أن نُزيلَ الأُسُسَ الأسطورية التي يحتويها؛ فداخل هذا النظام الذي لم يصبح وضعيًّا تمامًا لا يأتي كُلُّ الخَلَلِ من الأساس الأسطوري؛ إذ توجد مفهوماتٌ، وأشياءُ مُقرَّرةٌ، ونظريَّاتٌ ليست مُجافِيَةً للعِلم، ولكن "قبل- علمية" فقط. فبعد أن أشرنا بطريقة عامَّة إلى ما لا يُمكِنُ أن يكون عِلمًا في مادَّة السيكولوچيا ويجب رفضه قطعيًّا بوصفه أسطوريًّا؛ يجب أن نعرف الآن بأيِّ علامة يمكن مَعرِفَةُ ما يجب الاحتفاظُ به، على أن يتمَّ تحديده وتعميقُه، ومعنى هذا التحديد والتعميق في الوقت نفسه. وبعبارة أخرى، بعد

(1) discipline.

أن وضعنا عِلمَ النفس العلمي في مقابل علم النفس الأسطوري؛ يجب أن نُوجِدَ قاعِدَةً تسمح بمقابَلَتِه أيضًا بِعلمِ النَّفس "قبل- العِلميّ". وهذه المقابلة المزدوجة هي وحدها التي تسمح للنَّقد بإطلاقِ حُكمٍ واضِحٍ على سيكولوچيا الماضي.

-11-

ومن الواضح أن المشكلة التي نواجهها الآن هي "الدِّقَّة" في موضوع السيكولوچيا. ومن الواضح أيضًا أنه كما هو الحال فيما يتعلَّق بما يجب تصفتيه، فإن الاتجاهين النقديَّيْن (اللذين سبَقَت الإشارة إليهما) لم يَأتِيَا بأي وضوح في هذه المشكلة. وكلُّ الفرق بينهما من هذه الناحية أن مُمثِّلي الاتجاه الأول كانوا يريدون إدخالَ الضَّبط العلميِّ المثالي لعلوم الطبيعة إلى السيكولوچيا دون أي تبصُّرٍ، أمَّا الاتجاه الثاني فكان يريد أن يردَّ الاعتبار "لخصوصية" الظاهرة النفسية. ولكن لما كانوا يفسِّرون هذه الخصوصية بطريقة واقعية (روحية) فلم نَصِلْ إلى تحرير السيكولوچيا من المَثَلِ الأعلى الأوَّل للدِّقَّة، الذي لم يدخل إلى السيكولوچيا إلّا من جرَّاء الواقعية. ونشأت حول هذه النقطة أيضًا صعوباتٌ أدَّت إلى استمرار المناقشات حولها، فكان البعض يعتقد أن الطريقة المضبوطة الوحيدة هي تطبيقُ القوانين الرياضية، واستخدام الأجهزة التجريبية، بينما كان البعض الآخر يعتقد أن هذا مُستحيلٌ، بالنظر إلى خصوصية الظاهرة السيكولوچية. فمن ناحيةٍ يوجَدُ اتِّهامٌ بـ "المظهر العلمي" scientisme، ومن ناحية أخرى اتِّهامٌ بالنَّزعَة الأدبية، وهذه هي النتيجة الصحيحة الوحيدة التي وصلت إليها تلك المناقشة.

والصعوبة في هذا الصَّدَد هي أن ما أرادوا إدخاله في السيكولوچيا ليس الدِّقَّة على وجه العموم، وإنما دِقَّةٌ من نوعٍ خاص. فالواقع أنهم لم يبحثوا عن صياغة شروط هذه الدِّقَّة بحيث يكون تعريفُها مُستَقِلًا عن أي مضمون، بل كان هدفهم الدقَّةَ أو الضبط الذي يحتوي مُسبَقًا مضمونًا مُعيَّنًا من حيث العَدَد والحجم. وهكذا نسوا أن الضبط الرياضيَّ أو التجريب الرياضي ليس إلَّا شكلًا من أشكال الدقَّة التي تجعل من النظام بشكل عام عِلمًا وَضعيًا. لقد نسوا ذلك لأن تحديد صيغة تلك الدقَّة (الضبط) بشكلٍ عام لتتَّفِقَ مع السيكولوچيا يتضمَّن تجديدًا

جَذريًّا، على حين أن صيغة الدِّقَّة العُليا كانت جاهِزَةً من قبل في علوم الطبيعة، ولقد حاول مُصْلِحو السيكولوچيا أكثرَ من مرَّة تطبيقَ قاعدة الجهد الأقل.

وعلى أي حال، فإنه لا يجب الخلط بين هذه الدقَّة (الضبط) التي تُميِّز العلوم الوضعية عمومًا وبين الجهاز الرياضي؛ فنحن نُسمِّي الفيزياءَ عِلمًا مضبوطًا، رغم أنها ليست بالدِّقَّة أو العقلانية الكاملة، ولا نحن نُضفي عليها هذه التسمية لمجرَّد أنها تتضمَّن صِيَغًا رياضية. ويمكننا أن نذهب أبعد من ذلك فنقول إن لكلِّ عِلمٍ وَضعيٍّ ضَبْطَه الخاصَّ به؛ فالفسيولوچيا لها ضَبطٌ خاصٌّ بها، ولا يقتصر ذلك على استخدام الرياضيات، وإنما بسبب اختزالها المُنظَّم للوقائع الفسيولوچية إلى ظواهر "فيزيائية- كيميائية". بل نستطيع القول كذلك إن العلوم الوصفية البحتة تتضمَّن نَوعًا من الضبط. ومن الواضح هنا أن السِّمَة المميِّزَة العامَّة للضَّبطِ تَكمُنُ في شيء آخر غير استخدام الجهاز الرياضي أو التجريبي؛ فقد يستطيع نظامٌ استخدامَ الجهازِ الرياضيِّ التجريبي، ولا يتخطَّى -مع ذلك- المستوى الأسطوري، فالكثير من التجارب السيكولوچية، وغالبية التطبيقات الرياضية المُستَخدَمَة في السيكولوچيا تُثْبِتُ ذلك.

وكما أن التَّمييز الأساسي بين الميثولوجيا والعلم، هو أن العلم يبحث عن مَعرِفَةِ الوقائع في مستوى الوقائع نفسها، فإنَّ الضبط يتحدَّد بمدى مطابقة المعرفة للوقائع المدروسة. كل ما هنالك أن هذا التطابُقَ ليس ميتافيزيقيًّا، ولكنه تجريبيٌّ، أي أنه تطابُقٌ مع نَوعِ الدِّقَّة المُلائِمَة للموضوع.

وهكذا نرى أن تأكيداتٍ مثلَ: "كل شيء يتحرَّك"، أو "الطَّبيعةُ عَودٌ لا نهائيٌّ"، أو "الطبيعةُ مَسرحٌ لِصراعٍ دائِمٍ بين قُوًى متضادَّة"... هذه التأكيدات غيرُ مُطابِقَةٍ لنوع الدقَّة الملائم لموضوعها. ومثلها في ذلك مثل تلك الأنانية الإنسانية، فهي ليست خاطئةً خطأً مُطلَقًا، ولكنها لا تصل إلى أشكال الحياة الاقتصادية في دِقَّتِها المُعيَّنة؛ فهي ليست تقريرًا تنبع عباراته من هذه الأشكال نفسها. وفي الحقيقة، فإنَّ الحياة الاقتصادية لا تُبيِّن لنا الإنسانَ على وجه العموم، إنما تبيِّن لنا الطبقات، وهي لا تبيِّن لنا الأنانيةَ بشكلٍ عامٍّ، وإنما مصالِحَ طبقات. وعندما يصل الأمر إلى أنانية الطَّبَقة فهي لا تُبيِّنها في شكل عاطِفَةٍ سيكولوچيَّةٍ، ولكن في شكل بنوكٍ واحتكاراتٍ ودُوَلٍ، فالتوكيد السابق لا يصبحُ قانونًا اقتصاديًّا إلَّا إذا

أصبح يُطابِقُ الأشكال الدقيقة الخاصَّة بالوقائع التي يتناولها. وبعبارةٍ أخرى، فإن أيَّ نظامٍ يكون عِلمًا وَضعيًّا حالَمَا يُطابِقُ مُحتواه نَفْسَ الأشكالِ التي تُحدِّدُ فيها الموضوعاتُ التي يبحثها. والانتقال من المرحلة "قبل- العلمية" إلى المرحلة العلمية، يتلخَّصُ بِحقٍّ في الانتقال من عدم التطابُق إلى هذا التطابُق الذي تَكلَّمنا عنه. والتطوُّر نحو الشكل الرياضي لا ينتمي إلى هذا الانتقال، بل هو لا حَقَّ له، على الأقل من الناحية المنطقية.

-12-

من السَّهل أن نتبيَّن أن للدراما خاصِّيَّتَيْن أساسيَّتَيْن: أن أحداثها فريدةٌ، متعيِّنة "في الزمان والمكان"، وأنه لا يمكن فَهْمُها إلا بالرجوع إلى الأفراد المُعيَّنين، كُلٌّ في وحدته الفريدة. فالزواج يحدث في مكانٍ مُعيَّنٍ، ولحظة معيَّنةٍ، بين فردَيْن مُعيَّنَيْن. وكذلك الجريمة أو الرحلة. والظاهرة السيكولوچية بشكل عام هي دائمًا **مقطعٌ من حياة الفرد المُعيَّن**، وأي وسيلة أخرى للنظر إليها تُدمِّر واقعيَّتَها.

فإذا جرَّدنا الزواج من خصائصه الـ "ها هُنا، والآن" hic et nunc؛ فإننا نخرج من السيكولوچيا إلى القانون أو التاريخ أو الاجتماع. ولكي نفهم الزواج من حيث كونِهِ ظاهِرَةً سيكولوچيَّةً فقط؛ فيجب اعتبار الأفراد من حيث تفرُّدِهم أو تميُّزهم، فالمَلَكاتُ العقليَّةُ والأفكار والعمليات لا تتزوَّج، وما أن نستبدل الأفرادَ بمخلوقاتٍ من هذا النوع فإن حقيقة الظاهرة الدرامية تختفي فورًا.

ولكي يمكن اعتبار حقيقة ما مُتعلِّقةً بالسيكولوچيا؛ فيجب أن يكون لها علاقة بالدِّراما، يجب أن تعبِّر عن شيء ما، لشَخْصٍ ما. وهكذا نجد -مَثَلًا- أن قوانين ارتباط الأفكار ليست حقائِقَ سيكولوچيَّةً، فإذا كانت حقيقيَّةً فهي تنتمي لنظامٍ آخر لم يُخْتَرَعْ بَعْدُ؛ لأن موضوعات الأحكام التي تُعبِّر عنها ليست أفرادًا من الناس، بل أفكارًا، والأفعال التي تبحثها ليست ممَّا يقوم به الأفرادُ، بل الأفكار.

ولكي يُعتَبَرَ أحدُ تقريرات السيكولوچيا مَعرِفَةً سيكولوچيَّةً يجب أن يكون تعبيرًا كامِلًا عن الظواهر الدرامية في تَميُّزِها الفريد، فالتَّأكيدُ الذي بموجبه تكون

الأحلامُ ناتِجَةً عن انصرافٍ عن الواقع لا يمكن اعتبارُهُ مَعرِفَةً سيكولوچيَّةً؛ لأنه لا يُعبِّر تعبيرًا كامِلًا عن الظاهرة الدرامية في تَفرُّدِها، فلكلِّ حُلمٍ في الواقع محتوًى خاصٌّ، ولكن القضية المذكورة لا تمدُّنا بأيِّ وسيلةٍ للإحاطة بهذا المحتوى، بل هي تسمح فقط بتقرير نفس الشيء عن كل الأحلام تقريرًا قَبْليًّا بشكلٍ بَحت. وهذا القول يَصدُقُ على كل المقرَّرات والنظريات السيكولوچية التي تتضمَّن الشكلية (formalisme)؛ فالشكلية تبدأ باستبعاد الحَتميَّة الفرديَّة -بالذات- من الظواهر الدرامية، فهي تستبعد المحتوى الخاص للحلم إذا تناوَلَت الأحلامَ ومحتوى الفكر إذا تناولت الأفكار والخصائص الـ "ها هُنا، والآنية" hic et nunc[1] للأفعال ومغزاها الدِّرامي إذا تعلَّقَ الأَمرُ بالأفعال. ومن الطبيعي أن تكون كافَّةُ التوكيدات الصَّادِرَة عن الشَّكليَّة غيرَ قادِرَةٍ على الإفصاح عن الدراما بالدِّقَّة الخاصَّة بالدراما.

أمَّا "الكُلِّيَّات" totalités التي يُركِّز عليها السيكولوچيُّون فيَصْدُقُ عليها ما ذكرنا: يصدق -أوَّلًا- على الكُلِّيَّة الوظيفية التي اخترعها بعضُ السيكولوچيين -كـ "برچسون"- ليبدو أنه أدخل إصلاحًا على تلك السيكولوچيا، إصلاح يُقنِعُ بالتَّعدُّد البسيط للوظائف. ويؤكِّدون أن تَعدُّدَ الوظائف لم يُستَعْمَلْ إلَّا لحاجَةِ التَّحليل إليه، أمَّا في الحقيقة فالفرد "كُلِّي". إلَّا أن هذه العبارة الأخيرة لا تعدو أن تكون براعةً لفظيَّةً؛ إذ تَظلُّ المشاكِلُ الوظيفيَّةُ -في الواقع- لُبَّ الظاهرة، أمَّا "الكلية" فتبقى شَكليَّةً؛ ذلك لأن الإنسان شيءٌ آخر غير التَّشابُكِ مهما بَلَغَ الغايَةَ في التَّعقيد، وغير الانصهار-مهما كان كُلِّيًّا- بين الوظائف العقلية.

وذهب بعض السيكولوچيين أبعدَ من ذلك، فاتجهوا إلى إدراك "كُلِّيَّة" مُطلَقَةٍ ليست هي المجموع، ولا التركيب synthése، ولا الاندماجَ، ولا تَشابُكَ الوظائف العقليَّة؛ وإنَّما هي ذاتها بناءٌ مَستقِلٌ، وقانونٌ شامِلٌ، وجوهرُ الإنسانِ -إذا صَحَّ استخدام كلمة جوهر-. ولكن طرح المشكلة على هذا النحو طرحٌ غير سليم؛ فليس المقصود أن ندرس -إلى جانب الدِّراسة الواقعية والمجرَّدة والشكلية للإنسان- ما يأخذ في الاعتبار أيضًا "وحدته" في كافَّة أنحاء الدراسة. وليس المقصود -مَثَلًا- أن نستوفي كلَّ ما يمكن للسَّيكولوچيا الكلاسيكية أن تُزوِّدَنا به عن الوظائف العقلية، ثم نُؤكِّد بعد ذلك وجودَ البناء الكلي، وإنما ينبغي أن نبدأ بصياغَةِ أصغرَ ظاهِرَةٍ

(1) hic et nunc باللاتينية تعني (هنا والآن)

على نحوٍ يجعل فَهْمَها لا يَصِحُّ في الأذهان دون الكُلِّيَّة الفرديَّة. وبعبارةٍ أخرى، فإنَّ كُلِّيَّة الفرد لا يجب أن تكون هي النهاية والتتويج للبحث، ولكن الفرضَ الأَوَّلَ فيه، ولا جدوى من محاوَلَةِ جَعْلِ الكُلِّيَّةِ قضيَّةً خاصَّة.

ويجب -فَضلًا عن ذلك- أن نُشيرَ تَوًّا إلى أن كلَّ وجهٍ من أوجه الدراما تُقابِلُه أنواعٌ مُختَلِفَةٌ من الدِّقَّة.

وموضوع السيكولوچيا الصحيح هو مجموع الأحداث الفريدة التي تأخذ مجراها ما بين بَدءِ الحياة والموت. ولكن هذه الأحداث نوعان، بَعضُها حُرٌّ، وبعضها الآخر **مُوَحَّدٌ في قالبٍ مَفروض**[1]. الأولى تظهر خلال مجرى الحياة الفردية في مُتابَعَةِ هذه الأهداف أو تلك، والثانية يجب على الفَردِ بُلوغُها، وتُمَثِّلُ الضروريَّات الفيزيقية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. الأولى تتضمَّن حياةَ الفرد كما هي، والأخرى تتضمَّن وضعَ الفرد داخل نظامٍ ومُقتَضَياتٍ مُحدَّدَة. بهذا فإن شابًّا جميلًا، وغَنيًّا، وذكيًّا قد يتزوَّج -أو لا يتزوَّج- من فتاةٍ قبيحَةٍ، وفقيرَةٍ، وغبيَّة، وهذا الحدث قد يقع -أو لا يَقَع- في حياة الفرد؛ فهو حَدَثٌ غيرُ مُوحَّدِ القالَبِ.

وعلى العكس، نجد أن العمل يُمثِّل بالنسبة لأغلبية البشر ضرورةً مُحتَّمة، إلَّا أن شكل العمل لا يكون -مثل التَّثبيتِ الشَّهويِّ- مَتروكًا للمسار الحُرِّ للحتميَّة الفردية؛ إذ يجب تقديم عَمَلٍ مُعيَّنٍ بالذات، يحصل الفرد في مُقابِلِه على عائد. والفرد إمَّا أن ينخرط في هذه الحتميَّة، وإمَّا سَيَفْنَى، وليس المُهمُّ هنا ما يكون عليه الفَردُ بعامَّةٍ، ولكن وجود قدرات خاصَّة لديه وحصوله على عائدٍ مُعيَّن.

فعلى حين أن الأحداث الحُرَّة تفترض الفرد في تفرُّده المُعيَّن، ولا تفهم إلَّا بواسطته، فإنَّه بالنسبة للأحداث المُوحَّدَة القالَبِ لا يكون الفردُ إلَّا قِطعَةً للتَّعامُل، أو مجرَّد واسطة، أو على وجه الدِّقَّة: أداة.

وهكذا تنقسم السيكولوچيا إلى قسمَيْن كبيرين، فمن ناحية: عِلمِ النَّفسِ الفَرديّ، ومن ناحِيَةٍ أخرى: عِلمِ النَّفسِ العام. إلَّا أن الاثنين يجب أن ينطلقا من نفس المَنبَعِ؛ وهو الأحداث الدرامية التي تكون موضوعَهما، وتَتَّسِقُ مع نوع الضَّبطِ المُلائِمِ لِكُلٍّ منهما.



(1) standardizes.

وأهـم نتيجـة تترتَّـب عـلى ذلـك هـي أن خُطَّـة العمـل لِعِلـمِ نَفـسٍ عـامٍّ، يدَّعـي أنَّـه عِلـمٌ يجـب أن تَنبَثِـقَ لا مـن تَصوُّرٍ مُسبَقٍ لهـذا أو ذاك مـن مَلَـكاتٍ أو وَظائِـفِ النَّفـس، ولكـن مـن تحليـل الأحـداث المُوحَّـدَةِ القالـب للدرامـا كـما هـي في الواقـع. وبـدلًا مـن البـدء بتعديـد وتعريـف مجموعـة مـن المفاهيـم التقليديَّـة، يجـب -عـلى العكـس- البـدءُ مـن تحليـل الوقائـع الدراميـة ذاتهـا -مَثَـلًا- للعمـل، كـما هـو في المصانـع، وأينـما يوجـد نـاس يقومـون بأعـمال مُحـدَّدة، ولِلحِـرَف، كـما تُمـارَس... إلـخ.

وعلـم النفـس العـام الشـائع يعمـل بطريقَـةٍ مختلفـة تمامًـا؛ فهـو يبـدأ بإشـارة سريعـة جِـدًّا إلى أنـه في الحيـاة النفسـية يتَّضِـحُ لنـا عَمَـلُ مجموعـةٍ مـن الوظائـف، ويُقـدِّم لنـا مـن جديـدٍ بعـد ذلـك -مـع تغيـيرٍ طفيـفٍ، أو كبـيرٍ- أهـمَّ مـا في القائمـة الكلاسـيكية لمَلَـكاتِ النفـس. وهـذه القائمـة -كـما يقولـون- نـاتِجَـة عـن التحليـل، ولكـنْ تَحليـلُ مـاذا؟ إنَّـه ليـس بالتأكيـد تحليـلَ الدرامـا كـما حدَثَـت فِعـلًا، وإنَّمـا تَصـوُّرٌ غامِـضٌ جـدًّا للحيـاة النفسـية، مُـدرَكٌ بالطَّبـعِ بطريقـةٍ تَسـمَحُ للتَّحليـل أن يَستخلِصَ منهـا بعـد ذلـك الوظائِـفَ التقليديَّـةَ، ولم نَـرَ كتابًـا واحِـدًا في علـم النفـس العـام يبـدأ بتحليـلٍ دَقيـقٍ للأحـداث الموحَّـدة القالـب للدرمـا، أو بالتحليـل الدقيـق لمختلـف الأوْجُـهِ والعوامـل، وظـروف العمـل والحِرفَـة... إلـخ.

وإليكـم أوَّل سِـمَةٍ "قبـل- علميـة": **إن علـم النفـس العـام الشـائع يبنـي خُطَّـةَ عَمِلـه لا عـلى تحليـل الوقائـع الفعليـة المُعطـاة لـه؛ ولكـن عـن إيمـانٍ بتقاليـدَ لم يأخُـذْ عـلى عاتِقِـه التَّحَقُّـقَ مـن صِدْقِهـا بِشـكلٍ مُنظَّـم.**

فعلـم النفـس العـام الشـائع لا يبـدأ مـن الوقائـع ليصـل إلى المفاهيـم والنظريَّـات، بـل العكـس؛ فـلا يبـدأ السـيكولوجيُّون مـن وقائـع الدرامـا إلى حيـث يجـب أن يقودَهم التَّحليـلُ، بـل يبـدؤون مـن المفاهيـم والتعريفـات. وهكـذا نجـد أنفُسَـنا "تائهـين في البحـر"، لا نـدري أيـن نذهـب، وليسـت لدينـا أيُّ فكـرَةٍ عـن مـدى اتِّسـاعِ ودِقَّـةِ الوقائـع التـي يَجِـبُ أن نُطبِّـقَ عليهـا النظريـة. فنـدرس -مثـلًا- الإرادة، ولكـن نجـد أنفسـنا نأخـذ -بـلا تَبَصُّرٍ- أيَّ شيء وفـق الفكـرة التـي تكـون في رأسـنا عندئـذ: الفـرد، المجتمـع، تداعـي الأفـكار، الوراثـة، الغُـدَد ذات الإفـراز الداخـلي. وتبـدو الإرداة شـيئًا مَطَّاطًـا جِـدًّا، تُوافِـقُ كافَّـةَ النظريـات؛ إذ لمَّـا كُنَّـا قـد بدأنـا بـأن نراهـا كلَّ مـرَّةٍ -بحثًـا عـن النظريـة- فـلا يُمكِنُنـا بالتـالي اسـتبعادُ أيِّ نظريـة. وبمـا أننـا أخذنـا فكـرة الإرادة بلا

أيِّ تحديدٍ؛ فليس ثَمَّةَ ما يمنع إدراكَها بَحثًا عن النظرية فحسب، وبالتالي يصبح عدد الأبحاث والنظريات لا نهائيًا؛ ولن نعرف أبدًا أين نحن بالضبط. وسوف نُرجِئُ الحسابَ دائمًا -يحدونا الإيمانُ الصَّادِقُ- إلى ما سوف يأتي به المستقبل من الاستكمال.مكتبة سر من قرأ

وإليكم السِّمَة الثانية "قبل- العلميَّة-: إن أبحاث عِلْمِ النفس العام العاديَّة أبحاثٌ تتخبَّط على غَير هُدًى، فليس لديها أيُّ فِكرَةٍ عن الخُطَّة التي يجب أن تَتَّبِعَها، أو عن العلامة التي ستعرف بها مدى تَقَدُّمِ الأبحاث أو بلوغها منها.

فالانطلاق من المفاهيم إلى الوقائع بدون مَعرِفَةٍ إلى أين نتَّجِهُ أو أين نتوقَّف جَعَلَ علم النفس العام الشائع لا يعرف أبدًا هل ما بلغه هو الكُلُّ، أو هو جزءٌ فقط؛ ولذا فهو يؤكِّد دائمًا أنه بَلَغَ الكُلَّ. وهو يبغي أن يعرف كلَّ شيء، اعتمادًا على حالات خاصَّةٍ تمامًا؛ فالأبحاث المتعلِّقة بالإدراك -مَثَلًا- كانت مُترَكِّزَةً -حتى وقت قريبٍ- حول مُشكِلَةِ إدراك الأشياء، لا لشيء إلَّا لأنَّ التصوُّرَ الكلاسيكي يَعتَبِرُ الإدراكَ وسيلةَ معرفةِ العالَمِ الخارجيِّ. والمشكلة الرئيسية عندئذ هي معرفةُ كيف يُدرِكُ الإنسانُ -عمومًا- الأشياءَ بصفَةٍ عامَّة. ولكن ربما لا يكون ذلك سوى حالة خاصَّة ومُجرَّدَة تمامًا. فبأي حَقٍّ لا ندفع بالتحليل قُدُمًا إلى الموقف حيث يكون "الفَردُ المُدْرِكُ" "عامِلًا"، و"الشَّيءُ المُدرَكُ" آلَةً؟ فمن الواضح أن التجريد والشكلية هما اللذان يجعلان من الإدراك -عمومًا- مَركزَ الاهتمام. إلا أننا إذا أردنا أن نطرح جانبًا هاتَيْن الخطوتين، وسِرنا حتى النهاية، أي حتى الدراما؛ فإن الأسلوب الكلاسيكي لعرض المشاكل كُلُّه يَفقِدُ معناه تقريبًا، فإذا دفعنا -مَثَلًا- تحليلَ الإدراك إلى النقطة التي يكون فيها الفَردُ المُدرِكُ عامِلًا والشيء المُدرَكُ آلَةً بشكلها المُحدَّد؛ فإن المشكلة المَبدئيَّة التي بدأنا منها تصبح -فجأةً- غيرَ ذاتِ موضوعٍ؛ إذ نَجِدُ مَحلَّ مشكلة الإدراك -مثلًا- مشكلةَ "سيكولوچية العمل".

فإذا طبَّقنا أسلوبَ التفكير هذا على مجموع مشاكل علم النفس العام؛ فسنَجِد أننا سنستبدل بسيكولوچيَّة الإدراك والذاكرة والإرادة والعواطف- سيكولوچيَّةَ العَملِ والحِرفَة، والتَّعليم، في الصناعة.

إليكم السِّمَة الثالثة "قبل- العِلميَّة- لعلم النفس العام الشائع: وهي أن أبحاثه أبحاثٌ شائِهَةٌ تَقِفُ قبل أن تستطيع بلوغَ الوقائع المتعلِّقَة بها بالدِّقَّة

اللائقـة. وهـذا أمـرٌ محتَّـم؛ فسـوء حـظِّ هـذه السـيكولوچيا يتمثَّـل بالـذات في عـدم اسـتكمال أبحاثهـا؛ مِـمَّا يجعلهـا غـيرَ كافيَـةٍ، بينـما إذا حقَّقَـت مـا هـو مطلـوبٌ منهـا تصبـح غـيرَ ذات غِنـاءٍ.

وهكذا يتَّضِحُ الطابَعُ الحقيقيُّ لما اصطُلِحَ علىَ تسميته بالسيكولوچيا العلمية.

والغلطـة الكـبرى لهـذه السـيكولوچيا المُسـمَّاة بالعلميـة أنهـا تذهـب أبعـدَ مـمَّا ينبغـي، وأقـلَّ مـمَا ينبغـي، معًـا؛ فهـي تذهـب بعيـدًا جـدًّا في الإعـداد لتجاربهـا، ولكنَّهـا لا تذهـب بمـا فيـه الكفايـة فيـما يتعلَّـق بالأسـلوب الـذي تتصـوَّر بـه هـذه التجـارب؛ فهـي تـدرس -بِتَرَفٍ بالِـغٍ مـن الأَجهِـزَةِ والاحتياطـاتِ- العلاقـاتِ بـين الإدراك الضـوئيِّ والحـركات -مَثَـلًا-. وهـي لا تـكاد أن تَقنَـعَ بالاحتياطـات التـي تُتَّخَـذُ، والأجهـزة المُسـتَخدَمَة، مهـما بَلَغَـت مـن الدِّقَّـة، ولا يوجـد سـوى شيءٍ واحِـدٍ يُقنِعُهـا تمامًـا، وهـو بالـذات مـا نـراه قـاصِرًا، ونعنـي بـه تَصـوُّرَ الظاهـرة التـي تُجـرَى عليهـا التجـارب، فهـي تبـدأ في الواقـع مـن الإدراك الضـوئيِّ عمومًـا، والحَرَكَـةِ عمومًـا، والمشـكلة العامـة للعلاقـات بينهـما، في نفـس الوقـت. ولكـن التجربـة شـائهة كـما سـبق القـول، فـإذا كان الضـوءُ يُؤثِّـر عـلى الإنسـان، فـلا يحـدث ذلـك إلَّا في ظـروفٍ مُحـدَّدةٍ، ومـا يدخـل الضـوءُ معـه في علاقـاتٍ، ليسـت الحَرَكَـةَ في عمومهـا، وإنمـا أفعـالٌ إنسـانيَّة؛ فالبَحـثُ عـن العَلاقَـةِ بـين الإدراك الضـوئي عمومًـا، والحـركات عمومًـا؛ إنَّمـا هـو مـن عمـل التجريـد والشـكلية، وأنَّ مـا يُسـمَّى بــ "حالـة مُتميِّـزة" ربَّمـا لا تكـون إلَّا حالـةً خاصَّـةً، لا نجهـل فقـط دورهـا الحقيقـيَّ في الدرامـا؛ بـل لعلَّهـا لا تحـدث فيهـا عـلى الإطـلاق.

ويجـب -عـلى العكـس- أن ندفـع التجربـة حتـى النهايـة، حتـى اللحظـة التـي نجـد فيهـا الدرامـا، ثـم نُحلِّـلُ بعـد ذلـك الظاهـرةَ كـما نجدهـا، وبالشـكل الخـاص الـذي نجدهـا عليـه. فسـنجد -مَثَـلًا- أن العُـمَّال الذيـن يقومـون بعمـل مُحـدَّدٍ في إضـاءة مُحـدَّدة يُنتِجـون عائِـدًا مُحـدَّدًا. وأن تغيـير الإضـاءة قـد يزيـد مـن هـذا العائـد، أو يُقلِّلُـه. وهكـذا، نلاحـظ أنَّنـا ابتعدنـا عـن المشـكلة التي بدأنـا منهـا، فنجـد بـدلًا مـن المشـكلة العامَّـةِ لـلإدراك والحَرَكَـة، المُشـكِلَةَ المُحـدَّدة المُعطـاةَ فِعـلًا عـن الإضـاءة وإنتاجيـة العمـل. ويسـتطيع الجميـع أن يُقـرِّروا هنـا أنـه يجـب أن تكـون هنـاك غمامَـةٌ عـلى العـين؛ لـكي لا نـرى في هـذه الظاهـرة الأخـيرة "إدراكًا" مـن ناحيـة، "وحركـةً" مـن ناحيـة أخـرى.

ويمكننا -بالتأكيد- أن نعود من هذه المشكلة الخاصَّة -وأمثالِها- إلى المشكلة العامَّة، ولكن يجب أن نبدأ بالمشكلة الخاصَّة؛ فربما وصلنا إلى مشكلة عامَّةٍ مختلفة تمامًا. وعلى أي حال، فإننا إذا ما انطلقنا من فكرة الإدراك وفكرة الحركة، وأدركنا إنجازَ البحوث والتجارب؛ فسنجد أنفسنا أمامَ ما لا يُمكِنُ تَحقيقُه: فلا يمكن أن نستبدل التركيبَ بالاستقراء.

فالسيكولوچيا المُسمَّاة بالعلمية ليست إذًا -إذا ما طرحنا جانِبًا أوهامَها الفلسفيَّةَ وطابَعَها الأُسطوريَّ- خاطِئَةً، ولكنها مع ذلك "قبل- علمية"، والسِّمَة "قبل- العلميَّة" تتلخَّص هنا في أن السيكولوچيا "العلمية" قد قَبِلَت التَّتابُعَ الطبيعيَّ للأشياء، وذهَبَت تعملُ بطريقةٍ مضادَّةٍ للطريقة المعتادة التي تعمل بها العلوم التجريبية.

ويجب على السيكولوچيا بالتأكيد -شأنها شأن العلوم الوضعية- أن تَصِلَ إلى تعميماتٍ أو إلى معلوماتٍ عن الوظائف العامَّة، ولكنها يجب أن تنتهي إلى تلك التعميمات عن طريق التعميم أيضًا، لا أن تبدأ بالتعميمات كما تفعل السيكولوچيا "العلمية". ولكي تحتفظ السيكولوچيا بالتَّعميمات التي أَتَت بها كما هي اليوم؛ يجب -أوَّلًا- أن نتبيَّن ما إذا كان تحليل الظواهر الموجودة بالفعل (أي الظواهر الدرامية) لا يصل إلى تعميماتٍ مُختَلِفَةٍ تمامًا.

ومن ناحية أخرى، فإن سيكولوچيا الأحداث الموحَّدَةَ القالبِ -كسيكولوچيا العمل- تحتاج -بالتأكيد- لمعارِفَ مُستَمدَّةٍ من الفسيولوچيا. إلا أن هذا ليس سببًا لنبدأ بالفسيولوچيا: ففي هذه الحالة ستكون أمام ما لا يمكن تحقيقه مرَّةً أخرى؛ لأن التحليل للأحداث الدرامية هو وحده الذي يستطيع أن يُبيِّنَ لنا ما هي بالضَّبط المُساعَدَةُ الَّتي نطلبها من الفسيولوچيا؛ فعلم النفس الفسيولوچي يريد -على العَكس؛ بسبب ازْوِرارِهِ عن البَدءِ من الدِّراما- أن يحسم الأمر قَبليًّا بفروضٍ حول العلاقة بين ظواهر الشعور والجهاز العصبي، وهي فروضٌ مُناسِبَةٌ بلا شَكٍّ؛ إذ تسمح بإقامة "العلم" كُلِّه قَبْلِيًّا.

وهكذا يُستعارُ من الفسيولوچيا كلُّ ما لا حاجَةَ للسَّيكولوچيا به، ويُترَكُ ما هو ضروريٌّ بالفعل. ولمَّا كانت السيكولوچيا بنأيٍ عن الانزلاق في الاستعارات اللفظية لاستكمال ما ينقصها؛ فإن النتيجة أنها تقف -ببساطةٍ- في منتصف

الطريق. وهنا أيضًا نجد الوضع مَقلوبًا: فلا يحدث أبدًا أن مجال العلم الوضعي يتحدَّد، ومناهِجَه تُعرَّفُ ابتداءً من العلوم المساعدة؛ فنحن لا نُحدِّدُ مجالَ الفيزياء -مَثَلًا- ابتداءً من الإحصاء؛ لأنه بدون تَعميقِ أبحاثِ الفيزياء لم يَكُنْ من المُستَطاعِ أن يُقالَ إن الفيزياء ستحتاج يومًا للأسلوب الإحصائيِّ؛ فالأبحاث التي تُمارِس التَّحليلَ الفِعليَّ للدِّراما -وخاصَّةً للدِّراما المُوحَّدَةِ القالَبِ- هي التي تجعل من علم النفس الفسيولوچي المَرحَلَةَ قبل العلميَّة. ولكن لا يوجد بين الفسيولوچيا الخالِصَة وسيكولوچيا الدراما مكانٌ لعِلْمِ نَفسٍ فسيولوچيٍّ لا يهتمُّ إلَّا بالظواهر نصف المُتصوَّرة، تمامًا كما لا يوجد مكانٌ بجانب الفيزياء لفيزياءَ أُخرى لا تَدرُسُ في الميكانيكا سوى سقوطِ الأحجار، وفي الحرارة سوى الماءِ السَّاخن، وفي الكهرباء سوى كُراتِ نُخاعِ البَيْلَسان.

غير أنه ليس من الإنصاف أن نقول إنَّ علم النفس العام الشَّائع والسيكولوچيا المُسمَّاة بـ "العلمية" وعلم النفس الفسيولوچي- هي وحدها قبل العلميَّة؛ فقد قلنا من قبل إنها على الأخصِّ أسطوريَّةٌ، ونحن لم نؤكِّد الطبيعةَ قبل العِلميَّة إلَّا لبعض نتائجها التي تحوي جزءًا من الحقيقة؛ ذلك أن نتائج التراث الدرامي هي أيضًا "قبل- علمية". فالأدب والمسرح والمعرفة العملية بالإنسان هي بالذَّات التي تُكوِّن في مجموعها السيكولوچيا "قبل- العلمية" فعلًا. وتأتي الطبيعة قبل العلمية هنا من انعدام التنظيم للأساليب المستخدَمة، ومن عدم كفاية التحليل الدرامي[1] في نفس الوقت.

وكما قُلنا قبل ذلك، فإن الأساليب المستخدَمة في الأدب، ولدى "العارفين بالإنسان"، ليست بَعْدُ سوى الخِبرَةِ الدرامية الشائعة. إلَّا أن هذه العمليات التي تكفي لمتطلَّباتِ الحياة العادِيَّة لا تكفي للمعرفة بالمعنى العلمي لهذه الكلمة؛ إذ إنها لا تتَّصِفُ بالعقلانيَّة ولا بالتنظيم، وهي ليست عقلانية لأننا لا نعرف بالضبط وظيفتَها ولا مداها المُحدَّد، فنحن لا نعرف مثلًا ما الذي تُزوِّدنا به المُلاحَظَة الدرامية البسيطة، وما الذي لا يمكنها أن تزوِّدنا به؛ ذلك أن تلك الأساليب غير مُنظَّمَة ما دام ليس بوسعنا لا في الأدب ولا في المعرفة العملية بالإنسان- أن نُعيِّنَ بالضبط هذه الأساليبَ، وأن نستخدمها بعد ذلك بِتَعقُّلٍ.

---

(1) نحن لا نهتم بالفكرة القائلة بأن المعرفة العملية بالإنسان "قبل- علمية" لأنها تبدأ بـ "الحدس"؛ فنحن لا نعلم ما هو المقصود بكلمة "حدس". (المؤلف).

وهـذا هـو السـبب في أن المعطيـات الفعليـة للملاحَظَـة تختلـط في كل لحظـة بالمقتضيات الأخلاقيـة والاجتماعيـة أو الدينيـة، وهـذا هـو مـا يجعلنـا أيضًـا نسـتخدم -بـلا تفكـيرٍ- بعـضَ المُسـلَّمات التـي تُمثِّـل تَعميـمًا غـيرَ شرعـيٍّ للخـبرة الشـائعة. وهكـذا توجـد مجموعـة مـن العلاقـات ذات الدلالـة التـي تدخـل فيهـا -عـادَةً- أقوالُنـا وأفعالنا، فالمعرفـة العَمليَّـة بالإنسـان تعميـمٌ، وهـي تعتقـد أن أقوالنـا ومعانينـا لا تدخـل دائِمًـا إلَّا في علاقـات ذات دلالـة مُتعـارَفٍ عليهـا، وهـي تُفسِّـر أقوالنـا وأفعالنـا عـلى مسـتوى الـدلالات المُتعـارَف عليهـا. ونجـد أنفسـنا هنـا بِصَـدَدِ مُسـلَّمَةٍ، هـي: مـا أطلقنـا عليـه مُسـلَّمَة "الـدلالات المُتعـارَف عليهـا" (نقـد أُسُـس السـيكولوچيا. چورچ بوليتـزر). فقـد يحـدث في ظـروفٍ بِعَيْنِهـا أن قـولًا أو فعـلًا يعنـي شـيئًا آخـر غـير الدلالـة المُتعـارَف عليهـا، والتـي يحملهـا -عـادَةً- ذلـك القـولُ أو الفعـل، أو أن لهـا دلالـة، عـلى حـين أنهـا عـلى مسـتوى الـدلالات المتعـارَف عليهـا تبـدو بغـير دلالـة. وهـذه هـي حالـة الحُلـمِ والأعـراض العُصابيـة التـي تسـتدعي معرفـةُ دلالاتهـا بَحْـثَ مجـالِ الـدلالات الفرديـة. أمَّـا المعرفـة العَمليَّـة بالإنسـان، المُطبَّقـة عـلى تفسـير الـدلالات المُتعـارَف عليهـا، فهـي عاجِـزَةٌ عـن اكتشـاف هـذا المجـال.

فعـدم كـمال طُـرُقِ البحـث يـؤدِّي بالطبـع إلى عـدم كفايـة التحليـل الدرامـي، والتحليـل الدرامـي نفسـه موجـودٌ بالتأكيـد في الأدب وفي المعرفـة العمليـة بالإنسـان؛ لأنَّهـا تُحلِّـل الدِّرامـا بواسـطة الدرامـا نفسـها، ولكنهـا تقـف عنـد السـطح، بـدلًا مـن الوصـول إلى العنـاصر العميقـة للدرامـا؛ فهـي تُفسِّـر الفعـل الإنسـاني بعوامِـلَ عامَّـةٍ: الغـرور، الطمـوح، الحـب، الرغبـة في الحيـاة أو الرغبـة في المـوت، المصلحـة... إلـخ. إلَّا أن هـذه العوامـل نفسـها مُسـتقاةٌ مـن سـطح الخـبرة الدراميـة، ولا تُمثِّـل تشريحًـا حقيقيًّـا، كـما هـو الحـال -مَثَـلًا- في تفسـيرات التحليـل النفسـي.

وهكـذا لا يبلـغ التحليـلُ الدرامـيُّ دِقَّـةَ الدرامـا الحقيقيـة. فـ "دوتويڤسـكي- يقـدِّم لنـا شـخصياتٍ تهـدم -بانتظـامٍ في اللحظـات الهامَّـة مـن حياتِهـا- السـعادةَ التـي تنتظرهـا، إلَّا أن الدِّقَّـة لا تذهـب إلى أبعـد مـن ذلـك الـذي يقدِّمـه لنـا. بـل عـلى العكـس، لا نـرى السَّـببَ في نُشـوءِ هـذه الرَّغبـة في التَّعاسَـة إذا بدأنـا مـن الحيـاة الفريـدة للفـرد المُعـيَّن موضـوع الدرامـا، مثلـما نـرى بعـد التحليـل أن الحُلـمَ في الشَّـكل الـذي ظهـر بـه لا يُمكِـنُ أن يَحْلُمَـه إلَّا ذلـك الشَّـخصُ الـذي حَلُمَـه. وهكـذا الحـال بالنسـبة للمعرفـة العَمليَّـة بالإنسـان. وهـذا طبيعـيٌّ؛ فـإن الإبـراز الدقيـق للحتميَّـةِ

الفرديـة خُطـوَةً خطـوةً لا يُمكِـنُ إلَّا بفضـل العنـاصر الأساسـيَّة للدِّرامـا، تلـك العنـاصر التـي لا يمتلكهـا الأَدَبُ ولا المَعرِفَـةُ العَمليَّـةُ بالإنسـان، ولـن نسـتطيعَ بواسِـطَتِها كذلـك أن نَصِـلَ إليهـا إذا ظَلَّـت أسـاليبُهُما كـما هــي.

-13-

وسـنُطلِقُ عـلى شـكلَيْ السـيكولوچيا الخاطئـين اسـم "الميتاسيكولوچــي"؛ رغبـةً في التبسـيط. وهـذا التعبـير -في الواقـع- بعيـدٌ عـن الصِّحَّـة؛ فالسـيكولوچيا الميثولوجيـة هـي فقـط التـي توجـد "فيـما وراء" الدِّرامـا، أمَّـا السـيكولوچيا "قبـل- العلميـة" فَأَحْـرَى أن توجَـدَ "فيـما بعدهـا"، إلَّا أن مشـاكل واهتمامـات وتقاليـد الاثنـين بعيـدةٌ عـن اهتمامـات السـيكولوچيِّين، عـلى الأقـل عـن اهتمامـات هـؤلاء الذيـن يريـدون إقامـة سـيكولوچيا وضعيَّـة.

وهكـذا يصبـح مـن الممكـن تعريـفُ مـاذا يوجـد عـلى هـذا الجانـب أو ذاك في التناقُـض بـين الشَّـكلِ الخاطـئ علميًّـا، والصحيـح في السـيكولوچيا.[1]

فمن ناحيةٍ، توجد الميتاسيكولوچـي، وتشمل:

1. ميتاسـيكولوچيا النفـس جوهـرًا ame subitanie، وتتكـوَّن مـن كل الاعتبـارات الميتافيزيقيـة المُتعلِّقـة بالنَّفـس.
2. ميتاسـيكولوچيا ظواهـر النفـس، وميتاسـيكولوچيا الحيـاة الداخليـة، وتتكـوَّن مـن كلِّ الاعتبـارات المُتعلِّقـة بأحـوال النفـس والعمليـات العقليـة وظواهـر الشـعور وطبيعتهـا وخصائصهـا وتصنيفهـا، وبشـكلٍ عـامٍّ: الحيـاة الداخليـة بـأي طريقـةٍ تُوجَّـه بهـا.

---

(1) لا بُـدَّ أن "بوليتـزر" -بالرَّغـم مـن اطِّلاعـه عـلى مُنجَـزاتِ التحليـل النفـسي كـما هـو واضِـحٌ مـن الفقـرات السـابقة- لم يَفْطِـنْ إلى أن لفظـة "ميتاسـيكولوچيا" مُصطَلَـحٌ في التحليـل النفـسي، يشـير إلى المفاهيـم النظريـة: الديناميـة- البنائيَّـة- الاقتصاديـة، فاسـتخدمها في المعنـى الـذي يوضِّحـه في هـذه الفقـرة، والـذي يضـع "الميتاسـيكولوچيا" عـلى نفـس مسـتوى مصطلـح الميتافيزيقـا.

3. الميتاسيكولوچيا الوظيفية، وتشمل كافَّةَ الاعتبارات المتعلِّقة بالوظائف العقلية، وكذلك الاعتبارات الوظيفية التي تتَّخذ موضوعًا لها واحِدًا -أو أكثر- من الوظائف العقلية في السيكولوچيا الشائعة، وبشكل عام: كافة الإعتبارات الوظيفية التي لم يُستَخْلَصْ موضوعها مباشَرَةً من تحليل الدراما الفردية، أو الدراما المُوحَّدة القالب، والتي لا تبلغ دقَّة الدِّراما كما هي مُعطاة.

4. ميتاسيوكولوچيا الشخص، وتشمل كافَّة النظريات المتعلِّقة بالذات والأنا والشخص والفرد، والتي لا تنطلق من تحليل الفرد في فرديَّتِه، والعاجزة عن أن تبرز الحتميَّةَ المستمرَّة للمحتوى الخاص بحياة الفرد.

5. ميتاسيكولوچيا الإنسان، وتتكوَّن من كافَّةِ النظريات المُتعلِّقة بأفعال وسلوك الإنسان، والتي لا تتَّخِذُ أساسًا لها التَّحليلَ الدراميَّ، والتي لا تَصِلُ إلى كشف العناصر الدراميَّةِ الموجودَةِ تحت سَطحِ الخِبرَةِ الدِّراميَّة الجارِيَة.

ومن بين ضروب السيكولوچيا الخاطِئَة يكادُ يُجْمِعُ كافَّةُ علماء النفس على أنَّ ميتافيزيقا النَّفْسِ (الروح) هي وحدها التي تنتمي إلى الميتاسيكولوچيا. أمَّا ضُروبُها الأخرى فما زال لها صيتُ السَّيكولوچيا الوَضعيَّة.

والمهم الآن أن يُصبِحَ المدى الكامِلُ لمفهوم الميتاسيكولوچيا معروفًا في النهاية، وأن يمتدَّ نَزْعُ الثِّقَةِ الذي يَدمغُ اليومَ أنصارَ ميتافيزيقا النفس -أمام أعين أنصار السيكولوچيا الوضعية- إلى أنصارِ بقيَّةِ ضُروبِ الميتاسيكولوچيا. فنحن نقول بوضوحٍ: إنَّنا لا نستطيع أن نعتبر عُلماءَ النَّفس الذين لا يريدون أن يُفيدونا بأيِّ شيء عن العمليات النفسية- عِلميِّين. فقضايا الحياة الداخلية قد تسرُّنا، لكنَّها لا تنتسب إلَّا إلى الأساطير. كذلك لا نستطيع إطلاقَ لَقَبِ "عالِم" على هؤلاء الذين، تحت اسم نظرية الإدراك أو نظرية الإرادة أو نظرية الإنفصالات... إلخ- يؤلِّفون رواياتٍ قد تكون ناجِحَةً أو مُسلِّيَةً بعض الشيء؛ لأن العالِمَ هو الذي يعرف شيئًا ما عمَّا هو موجود فعلًا، أمَّا هذه النظريات فهي بالنسبة للمعرفة السيكولوچيَّة كاعتباراتِ "قسوة الطبيعة" بالنسبة للمعرفة الفيزيقية، وهذه هي الحال بالنسبة للنظريَّات عن "الأنا".

والنظريـات التـي تقـول "الأنـا هـي الإرادة"، أو "الأنـا هـي مُركَّـب" Synthese، أو "الأنـا هـي بنـاء"- لا تحمـل بنـا شـيئًا؛ لأن الموضـوع الـذي نرغـب مَعرِفَـةَ شَيءٍ عنـه هو الأفـرادُ المُعيَّنـون الذيـن يَحْيَـونَ حيـاةً محـدودةَ المحتـوى. ومـن ناحيـةٍ أخـرى نحـن لا نسـتطيع أن نكتفـي بتوكيـداتٍ غامِضَـةٍ حـول دوافِـعِ الفِعـلِ الإنسـانيِّ. نحـن نريـد الآن، ونحـن بِصَـدَدِ العِلـمِ، أنْ نُـودِّعَ رجـالَ الأدبِ والأخـلاق، ومعهـم ميتاسـيكولوچيا الإنسـان.

أمَّـا فيـما يتعلَّـق بالجانـب الآخـر المعـارِضِ، فنحـن نريـد أن نقـول ببسـاطَةٍ إنـه في مقابـل الميتاسـيكولوچيا تَقِـفُ الوَضعيَّـةُ. ولكـنَّ الفـوضى الحاليـة في السـيكولوچيا كبـيرة جـدًّا، لدرجـة أننـا لا نسـتطيع أن نسـتغني عـن إطـلاق تَسـمِيَةٍ خاصَّـةٍ حتـى عـلى هـذا الشـكل مـن السـيكولوچيا، الـذي يصبـو إلى أن يكـون وَضعيًّـا؛ لذلـك نحـن نريـد أن نسـتعيرَ الاسـمَ المُسـتَخْلَصَ مـن السِّـمَةِ الأساسـية التـي تُمَثِّـلُ الفـارق الحقيقـيَّ بينهـا وبـين الميتاسـيكولوچيا؛ لنعطيـه للشَّـكلِ الحقيقـيِّ للسـيكولوچيا.

فالميتاسـيكولوچيا تتميَّـز بتحويـل الدرامـا بمسـاعدة الواقعيَّـة الرُّوحِيَّـة والتجريـد والشـكلية. وإذا أردنـا أن نُعـبِّرَ في صيغـةٍ واحِـدَةٍ عـن العَيْـبِ الجَذريِّ للميتاسـيكولوچيا، فيجـب أن نقـول إنـه خـان الواقـع العَيـانيَّ concret ثـلاثَ مـرَّاتٍ، فَـكلُّ خطـوةٍ مـن خطواتـه الرئيسـية تُقابِلُهـا خيانَـةٌ مُعيَّنَـة.

فالواقعيـة الروحيـة تلغـي واقِـعَ الظاهـرة الدراميـة نفسـه كـما هـو مُعطًـى عيانيًّـا. والتَّجريـدُ يَسـتبدِلُ بالأفـرادِ العَيَانِيِّـين الَّذيـن يكونـون موضـوعَ الدِّرامـا، مُمثِّـلين آخرين لا شَـخصيِّين، والشَّـكليَّةُ تَلغـي الأُسـلوبَ المُحـدَّدَ الـذي تتعـيَّن بـه الوقائِـعُ الدراميَّـة، ولا تحتفـظ إلا بأشـكالٍ لا يوجَـدُ للحتميَّـةِ الفرديَّـة فيهـا مَـكانٌ، وهكـذا يكـون عالَـمُ الميتاسـيكولوچيا مُجـرَّدًا، بالمعنـى الكامـل للكلمـة، عالَـمًا مـن العَمليَّـات والوظائـف التـي تُحلِّـق عاليًـا فـوق الحَتميَّـة الفَرديَّـة للدرامـا، وتخضـع لعلاقـاتٍ ليـس لهـا أيُّ مَغـزًى إنسـانيٍّ.

أمَّـا السـيكولوچيا الوضعيـة التـي ترفـضُ هـذه الخُطـواتِ، فإنَّهـا ترجِـعُ إلى العَيـاني. فمـن "مُنْجَـزات" rèalisation الميتاسـيكولوچيا تعـود إلى وقائِـعِ الدِّراما، ومـن الوَظائِفِ والعَمليَّـات تعـود إلى الأفـرادِ كـما هُـمْ، ومـن مفاهيـم التَّصنيـف تعـود إلى الوقائِـعِ الدِّراميَّـة في حَتْمِيَّتِهـا الفرديـة، فتخطِّـي السَّـيكولوچيا الأُسـطوريَّة هـو إذًا عـودة إلى

العَيـاني. تتميّـزُ السِّـيكولوچيا الوَضعيّـة في مُقابِـلِ الميتاسـيكولوچيا بأنها سـيكولوچيا عَيانِيّـة، فالسَّـيكولوچيا العيانيـة ليسـت إذًا إحـدى السـيكولوچيات، ولكنّهـا هـي السـيكولوچيا بالمعنـى القاطـع المانِـعِ لهـذا التَّعريـف.

ومن ثَمَّ، نقول:

1. إن السـيكولوچيا هـي عِلـمٌ مَوضوعُـه مَجموعَـةُ الوَقائِـعِ الأصيلـةِ الفَريـدَةِ، المُسـمّاة: "الدِّرامـا"، فالوقائـع السـيكولوچيّة إذًا هـي أجـزاء الدِّرامـا، وكذلـك ينبغـي أن تكـون الواقِعَـةُ السَّـيكولوچيّةُ البالِغَـةُ البسـاطة جُـزءًا مـن الدِّرامـا كذلـك.
2. ونحـن نطلـق أيضًـا اسـم "أسـطوري" عـلى هـذا الشـكل مـن السـيكولوچيا الذي يُحـوِّلُ الدِّراما إلى عَمليّـاتٍ عَقليّـةٍ عـن طريـق الواقعيّـة الرُّوحيّـة، والتجريديّـة والشـكليّة، كـما نطلقـه بصفَـةٍ عامّـةٍ عـلى كل سـيكولوچيا توجَـدُ فيهـا هـذه الخُطـواتُ بـأيِّ شَـكلٍ مـن الأشـكال.
3. كذلـك نُسـمِّي "قبـل- علمـي" كُلَّ شَـكلٍ مـن أشـكال السـيكولوچيا لا يَسـتَمِدُّ التَّحليـلَ الحقيقـيَّ للدرامـا خُطّـةً لدراسـته ومجموعـةِ مَشـاكِلِه، ولا تَمـسُّ تَوكيداتُـه الظّواهِـرَ الدِّراميّـة في صَميـمِ دِقّتِهـا.
4. ونُطلِـقُ كَلمـةَ ميتاسـيكولوچيا عـلى مجموعـةِ البحـوث والنظريّـات التـي حدَّدناهـا في التعريفَـيْن 2، 3.

-14-

ونـودُّ هنـا أن نضـع جانِبًـا القيمـة الوضعيّـةَ لمفهـوم السـيكولوچيا العَيانِيّـة concrète؛ لـكي نتفـرّغ للأسـلوب الـذي تمكّنّـا بواسـطته مـن إلقـاء ضـوء جديـد عـلى كلِّ الصعوبـات والاعتراضـات التـي تُكـوِّن الأزمـةَ الحاليـةَ للسـيكولوچيا. فـإذا كانـت هـذه السـيكولوچيا العَيانِيّـة هـي بالفعـل السـيكولوچيا الوضعيـة لَوَجَـبَ أن تُقـدِّمَ لنـا فعـلًا الرُّؤيَـةَ الجديـدة للمشـاكل، تلـك الرؤيـة التـي نتوقّعهـا مـن مفهـومٍ وَضْعِـيٍّ حقًّـا للسـيكولوچيا.

فالمشاكل بشكلها القائم اليومَ لا تتناول الجوهر، كما أن العبارات التي تُصاغُ فيها التَّعارُضاتُ الكَبيرةُ في السيكولوچيا المعاصرة لا تُعبِّر عن الموقف الحقيقي، فالخطأ يكمن دائمًا في إحلال الأشياء في غير مَحلِّها، ويكون الجوهر في كل مرَّةٍ عَودَةً إلى العَيانيِّ، وهذا هو السبب في أن السيكولوچيا العيانية تُمثِّل الجِماعَ[1] الحَقيقيَّ للأضداد القائمة، كما أنها قادرة على حَلِّ الصعوبات الكامِنَةِ في أساس كُلٍّ منها.

1. والصُّعوبَةُ التي تكمن في أساس التَّعارُضِ بين السيكولوچيا الذاتية والسيكولوچيا الموضوعية هي ضرورةُ اهتمامِ السيكولوچيا بوقائِعَ لها -منطقيًّا- نَفْسُ تركيبِ وقائِع أيِّ عِلمٍ آخر. وينبغي أن تظهر هذه الوقائِعُ تحت نفس الشروط التجريبية، على أن تظلَّ في الوقت نفسه وقائِعَ أصليَّةً. ولكن السيكولوچيا الموضوعيَّة لا تفي بما جاء في الشرط الثاني، على حين لا تَفي السيكولوچيا الذّاتيَّة بما جاء في الشرط الأول. وكِلا السيكولوچيَّتَيْن لا تَفِيان بالشَّرطَيْن معًا؛ لأن كِلْتَيْهما تبحث عن الواقعيَّة السيكولوچية في الإدراك. وتؤيِّد السيكولوچيا العَيانِيَّةُ الاتجاهَ الموضوعيَّ لأنه يتمسَّك بضرورة رفض إعطاء السيكولوچيا موضوعًا لا يمكن دراسَتُه بنفس شروطِ العلوم الطبيعية، كما تُؤيِّد السيكولوچيا الذاتِيَّةَ حين تتمسَّك بالسِّماتِ الفريدة الأصليَّة للوقائع السيكولوچيَّة، وتعيبُ السيكولوچيا العَيانِيَّةُ على كُلٍّ من الاتجاه الموضوعي والذاتي أنَّهما بَحَثَا عن موضوع السيكولوچيا في الإدراك البسيط. فالدِّراما التي ليست داخليَّةً أو خارجيَّة لا تنتج عن الإدراك.

2. والصُّعوبَةُ التي تكمن في أساس التعارُضِ بين السيكولوچيا كعِلْمٍ "طبيعيٍّ"، والسيكولوچيا كعِلْمٍ "أخلاقي"[2] تأتي من ضرورة إدراج المقولاتِ الأساسيَّةِ وأساليب العلوم الطبيعية procédés في داخل السيكولوچيا، بشرط أن تظلَّ مُحتَفِظَةً للظَّواهر السيكولوچية بالطَّابَعِ الإنسانيِّ الذي لا يتوفَّر إلَّا

(1) الجِماعُ من كُلِّ شيءٍ: مُجْتَمَعُ أَصْلِه (المعجم الوسيط). يشير بوليتزر هنا إلى فِكرَةٍ دیالكتيكيَّةٍ، فهو يرى أن السيكولوچيا العَيانِيَّة تُمثِّل جِماعَ الأطروحة sythèse لنقائض الأطروحة antithèse المُمثَّلة في نظريات علم النفس المختلفة. ونقترح ترجمةَ "these" بـ "أطروحة"، و"anti these": "نقيض أطروحة"، و"synthèse": "جِماع الأطروحة".

(2) في الاصطلاح الفرنسي science morale مُقابِلٌ للاصطلاح الألماني Geisteswissenschaftliche.

عـن طريـق الجانـب ذي المعنـى في الدِّرامـا. ولكـن لا يمكـن للسـيكولوچيا -بوصفها عِلْمًا طَبيعيًا- أن تُدخِلَ إلى السيكولوچيا المَقولاتِ وأساليبَ العُلومِ الطبيعيَّة بدون أن تُخفي الطَّابَعَ الإنسانيَّ للظَّواهِرِ السيكولوچية، ولا يمكن للسيكولوچيا -بوصفها عِلمًا "أخلاقيًا"- أن تُنقِذَ هذا الطابع الإنساني إلَّا بأن تنقل الظواهر السيكولوچية إلى مستوًى يجعلها بعيدةً عن مُتناوَلِ المقولات والمناهج العلميَّة. وتؤيِّد السيكولوچيا العيانية هَذَيْن الاتِّجاهَيْن من حيث تَشبُّثِ كلٍّ منهما بما هو ضرورة لكلٍّ منهما، ولكنها تأخذ عليهما أنهما بَحَثَا عن موضوع السيكولوچيا في عالَمٍ بِعَيْنِه، أحدهما: في عالم الطبيعة، والثاني: في عالم الروح، بدلًا من أن تَبْحَثَا عنه في الدِّراما؛ لأن كِلَا العالَمَيْن لا يمكن أن يظهر في المجال السيكولوچي إلَّا بنوعٍ من التجريد للدراما. وعلى العكس من ذلك، إذا ما قَبِلْنا أن تُطْرَحَ جانِبًا هذه التَّجريداتُ لأَمْكَنَنا تَطبيقُ المَقولاتِ ومَناهِجِ العلوم الطبيعيَّة في السيكولوچيا، دون أن تَفقِدَ الظَّاهِرَةُ السيكولوچيَّةُ طابَعَها الإنسانيَّ، ونحتفظ لهما بصِفَتِهما الإنسانيَّة، دون أن يصير العِلمُ السَّيكولوچيُّ عِلْمَ الرُّوحِ المَوضوعيَّة.

3. والصعوبة التي تَكمُنُ في أساس السيكولوچيا التحليلية والسيكولوجيا التركيبيَّة توجد في ضرورةِ تَجزئَةِ الطَّابَعِ الكُلِّيِّ إلى العناصِرِ الَّتي يتكوَّن منها، مع المُحافَظَةِ على كُلِّيَّةِ الفَرد في نفس الوقت. تلك الكلية التي لا يُمكِنُ تَصوُّرُ الدِّراما بدونها. ولأنصار التحليل (إلى عناصر) الحَقُّ حين يُؤكِّدون أنه يتعيَّن على السيكولوچيا أن تتَّبع هي أيضًا أسلوب التجزئة. ولأنصار فكرة التركيبِ والشكل والكلية الحَقُّ أيضًا في رفضهم تَفتيتَ الحَياةِ السيكولوچية إلى جُزيئاتٍ من العناصر، بحيث لا يمكن جَمْعُ الحَياةِ السيكولوچيَّة منها من جديد. ولكن يُخطِئُ كُلٌّ من الاتجاهين حين يَعتَقِدُ أنَّ المنهجَ التحليليَّ والمنهجَ التركيبيَّ يَجِبُ تطبيقُهما في الحياة السيكولوچيَّة كما عَرفَتها السَّيكولوچيا الدَّارِجَة، أعني بوصفها نتائِجَ للنَّقل. وإذا ما تحدَّد موضوع السيكولوچيا على أنَّه الدراما فإن كُلِّيَّة الفرد تصبح افتراضًا مَبدئيًا أساسيًا لا يمكن إدراك أيِّ ظاهرة أو مفهوم سيكولوچيٍّ بدونه، وفي هذه الحالة يصبح التحليلُ الجُزئيُّ ليس مُمكِنًا فقط، بل وخصبًا. والسيكولوچيا

العيانيـة إذ تُجـزِّئ الدرامـا؛ تَتَّجِـهُ إلى عنـاصِرَ بِدَوْرِهـا دراميَّـة، وتتضمَّـن كُلِّيَّـةَ الفَـرد، مثلـما تَتضمَّـن الظاهِـرَةُ أو الظَّواهِـرُ المُجـزَّأةُ هـذه الكُلِّيَّـة.

4. والصُّعوبـة في أسـاس التَّعـارُض بـين السـيكولوچيا "الاسـتقرائية" والسـيكولوچيا "إلى الاعـماق" تكمـنُ في ضرورة الوصـول إلى قوانـينَ، وهـي قوانـينُ يَجِـبُ أن تكـون عامَّـةً، وفي الوقـت نفسـه خاصَّـةً بالحيـاةِ السـيكولوچيَّة. ولأنصـار السـيكولوچيا الاسـتقرائية الحَـقُّ في محاولـة اسـتخدام الاسـتقراء، كـما يَحِـقُّ لأنصـار السـيكولوچيا "النفَّـاذة" أن يُنكـروا القيمـةَ السـيكولوچيَّة لاسـتقراءات السـيكولوچيا الدارجـة. ويخطـئ كِلا الاتجاهَـيْن حـين يعتقـدان أن الاسـتقراء كـما اسـتخدَمَته -عمومًـا- السـيكولوچيا الدارجـة هـو اسـتقراءٌ بالمعنـى الصحيح للكلمـة؛ لأن عـالم السـيكولوچيا الكلاسـيكي يُطبِّـق الاسـتقراء عـلى نتائـج التَّحـوُّل[1]. وهـذا التَّحـوُّل يَهـدِمُ الدِّرامـا. إن التعميـمات التـي يُعتَقَـدُ أننـا اسـتخلصناها مـن الاسـتقراء، صـادِرَةٌ في الواقـع مـن خطـوات التَّحـوُّل. وعـلى أيِّ حـال، لمَّـا كان التحـوُّل قـد أزال الدرامـا؛ فـإن الاسـتقراءات التـي أُجْرِيَـت عـلى نتائـج التحـوُّل لا يمكـن أن تتضمَّـن أيَّـةَ معلومـاتٍ خاصَّـةٍ بالدرامـا، ولهـذا السـبب تبـدو هـذه الاسـتقراءاتُ فارِغَـةً. وبالعكـس، تنتهـي الاسـتقراءاتُ الصَّادِرَةُ عـن الدرامـا نَفْسِـها إلى تعميـماتٍ دراميَّـةٍ قابِلَـةٍ للتَّطبيـق عـلى الدراما التـي اسـتُنْبِطَت منهـا.

وهـذا الـشرح الـذي يُثْبِـتُ أن السـيكولوچيا العَيانِيَّـة لا تُقـدِّم حَـلًّا وَسَـطًا، بـل تُقـدِّم تركيبًـا حقيقيًّـا ليـس مجـرَّد تمريـنٍ مَـدرسيٍّ بسـيط. فالمُتطلَّبـات التـي أدَّت إلى التناقضـات التـي نحـن بِصَدَدِهـا حقيقيَّـةٌ حقًّـا لدرجةٍ لا تسـمح لنـا أن نَعتَبِرَهـا خاطِئَةً، غـير أن تاريـخ السـيكولوچيا يُثْبِـتُ لنـا أن هـذه المُتطلَّبـات غـيرُ كافِيَـةٍ أيضًـا بالشـكل الـذي تحقَّقَـت بـه؛ لذلـك ينبغـي تخطِّـي هـذه المتطلَّبـات. فـما أردنـا قولـه فيـما سـبق أننـا لا نريـد أن نقـدِّم حـلًّا مـن حيـث المبـدأ لهـذا التناقُـضِ النَّظـريِّ المَحْـضِ، بـل نريـد أن نُشـيرَ إلى الاتجـاه الـذي يوجـد فيـه حـلٌّ واقعـيٌّ للصعوبـات الحقيقيـة.

وعـلى أيِّ حـالٍ، فـإذا نَجَحَـت السـيكولوچيا العَيانِيَّـة -أينـما كانـت- في فَـرْضِ نفسـها (كَجِـماعٍ) فـإذا الأضـداد (أضـداد الجِـماع) داخِـلَ الاعتراضـاتِ المُوجَّهَـة إلى السـيكولوچيا

(1) التحوُّل أو النقل Transposition

العلميـة العاديـة هـي مـن مُتطلَّبـاتِ السـيكولوچيا العَيانيَّـة، إلَّا أنَّها لم يُفْطَـنْ إليهـا بِقَـدْرٍ كافٍ.

وإن الأصالـة المُميِّـزَة للظواهـر السـيكولوچية التـي يدعـو إليهـا أنصـار سـيكولوچيا الاسـتيطان هـي في الحقيقـة أصالَـةُ الدِّرامـا، تلـك الأصالة التـي -رغم عمليـات التحوُّل- يستشـعرونها في غـير وضـوحٍ؛ إذ لا يدركـون طبيعَتَهـا الحَقَّـةَ من جَرَّاء عمليّـات التحوُّل. فالسـيكولوچيا -كعلـمٍ "أخلاقـيٍّ" geisteswissenschaftliche- تطالـب في واقـع الأمـر بالعـودة إلى الدرامـا، ولكـن هـذه الدِّرامـا عندهـم قريبـةٌ جِـدًّا مـن التحـوُّل، حتـى إن السـيكولوچيا المذكـورة لا تسـتطيع إلا أن تعتقـد بـضرورة تأمـين اسـتخدام وجهـة نظـر الدِّلالـة، بـأن يجعلـوا مـن "الـروح" مفهومًـا مُتضَمَّنًـا في الظواهـر السـيكولوچية، بـل إن الاتهـام الـذي بـه تَهـدِمُ السـيكولوچيا الكلاسـيكية الأشـكالَ والأبنيـةَ مـا هـو بـدوره إلَّا اعتراضًـا لا زال غامِضًـا ضِـدَّ التحـوُّل المُميَّـز للميتاسـيكولوچيا بوجـهٍ عـام. كـما أن تأكُّـدَ أولويـة وسـيادة الأشـكال والأبنيـة ليـس إلا تأكيـدًا ناقِصًـا للإلـزام الـذي يَعتَـبِرُ كُلَّ الظواهـر والمفاهيـم السـيكولوچية أجـزاءً مـن الدِّرامـا، وأنهـا -أي الظواهـر والمفهومـات- يجـب أن تَنْتَسِـبَ إلى حَـدَثٍ دراميٍّ يتضمَّـن دائمًـا الفـردَ، باعتبـاره "كُلًّا". واتِّهـامُ الاسـتقراء بالعُقْـمِ في المجـال السيكولوچـي ليـس في الواقـع إلَّا لِعَجْـزِهِ عن تطبيقـه عـلى الدرامـا، وإحـلال "الفهـم" أو "النَّفـاذ" مَحـلَّ الاسـتدلال ليـس إلَّا أسـلوبًا غـيرَ مُباشِرٍ للمُطالَبَـةِ بـأن يبـدأ الاسـتقراء لا مـن نتائـج التحـوُّل الـذي أصـاب الدرامـا، ولكـن مـن الدرامـا مبـاشَرَةً.

-15-

وعـلى أيٍّ، فـإنَّ السِّـمَة المُميِّـزَة للسـيكولوچيا العَيانِيَّـة لا تتمثَّـل فقـط فيـما تقـترح مـن إمـكانِ تَخطِّـي أضـداد (الأطروحـة) في السـيكولوچيا الرَّاهِنَـة. ولكـن إذا كان علينـا خـلال تخطِّـي هـذه الأضـداد أن نختـرع السـيكولوچيا العَيانيَّـة بأكملهـا فسـيكون لنـا الحَـقُّ في أن نرتـابَ فيهـا. وعـلى العكـس، فالسـيكولوچيا العَيانيَّـة لا تحتـاج أن نخترعهـا بأكملهـا؛ فقـد سـبق أن تحقَّقَـت بصـورة جزئيـة، ولكـن كان يَنقُصُهـا الثَّبـات consistence والتَّماسُـك cohérence اللَّـذان يَنتُجـان عـن طريـقِ التَّصفِيَـةِ النِّهائيَّـة

للميتاسيكولوچيا. وأبرز الإلهام الفكري الجديد ذلك الإلهام الذي يمكن في ظِلّه إحداث هذه التصفية.

فما نُسمِّيه بالسيكولوچيا العَيانِيَّة ليس في حقيقة الأمر إلَّا هذا الإلهام الجديد الذي يسيطر سيطرةً فَعَّالَةً على بعض البحوث، التي تُمثِّل -على مستوى الأبحاث الوضعيَّةِ نَفْسِها- قطيعةً بينه وبين الميتاسيكولوچيا كلها، كما يمثِل في نفس الوقت عَودَةً للتُّراث الدرامي، فليست بنا حاجةٌ إذًا أن نخترع -من الألف إلى الياء- تنظيمًا كامِلًا لمناهج المعرفة العلمية، بالإنساني. فذلك ما تقوم به فعلًا -منذ مُدَّةٍ- السيكولوچيا الصناعية. والمطلوب هو معاوَنَةُ هذه البحوث بالذَّات لكي تعي تمامًا بنفسها. وواجبنا أن نُشيرَ إلى أن هذه البحوث ليست علومًا مستقلَّةً، ولا أجزاء خاصَّة من السيكولوچيا الدَّارِجَة؛ لأنَّ الأشكال الحقيقية لأي بحثٍ علميٍّ لا تسمح بقيام أشكال خاطئة بجوارها، ومن بابٍ أَوْلَى، فهي لَيسَت أقسامًا عنها. وينبغي أن نبيِّن -من جهةٍ أخرى- أنَّ السيكولوچيا الصناعية والقياس السيكولوچي psychotecnique بصفةٍ عامَّةٍ لا يُمثِّلان "السيكولوچيا التطبيقية"؛ فما هو هذا الذي يُطبِّقان؟ أنَّه لا يجوز القَولُ إن فيزياء "ديكارت" هي تطبيقٌ لفيزياء "أرسطو"، وأن العودة للشكل الحقيقي للبحث العلمي هي الجزءُ التَّطبيقيُّ للشَّكلِ الخاطِئ من هذا البحث.

وعلينا أن نُبَيِّن بصفةٍ عامَّةٍ أن كُلَّ هذه البحوث تُمثِّل بالذَّات استبعادَ هذا الشَّكلِ من السيكولوچيا، النَّاتِجِ عن اهتماماتٍ إحيائيَّةٍ، كما تُمثِّل عودةً إلى التُّراث الدِّراميِّ، مع إزالَةِ عمليَّاتِ التَّحوُّل.

وعلينا أن نُبَيِّنَ أيضًا أنه لم يكن للواقعيَّة الرُّوحية والشكلية والتجريديَّة أيُّ دَوْرٍ في المعارف التي زوَّدَتنا بها الاتجاهاتُ الَّتي نحن بِصَدَدِها، وعندما استطاعت "الواقعية الرُّوحيَّة" الوصولَ إلى اكتشافاتٍ حقيقيَّةٍ فلم يتمَّ لها ذلك إلَّا بالتَّحوُّل عن هذه الخطوات والتَّحرُّر منها. وبعبارَةٍ أخرى، نقول إن هذه البحوث التي تمثِّل العودة إلى التراث الدراميِّ ينبغي أن تُوضَعَ -من الآن فصاعِدًا- في بؤرَةِ الاهتماماتِ النَّظريَّةِ للسيكولوچيِّين المُستغرقين تمامًا -للآن- في البناء المركزيِّ للميتاسيكولوچيا.

-16-

مـن كُلِّ مـا سَـبَقَ يَتَّضِـحُ أن السـيكولوجيا العَيانِيَّـة يَصْعُـبُ "تنفيذُهـا" بطريقـةٍ مدرسـيَّةٍ بحـتٍ، ولـكي يمكـن تَنفيذُهـا يَنبغـي أن يُبـيَّن أنـه لم يحـدث أي انتقـالٍ مـن الاهتمامـات الدراميَّـة إلى الاهتمامـات الإحيائيَّـة، وأنَّ عالَـمَ الظَّواهـر السـيكولوجيَّة لا يسـتدعي تحـوُّلَ الدِّرامـا، وأنَّـه ليـس ناتِجًـا عـن الخطـوات الثلاثـة التـي وصفناهـا أو -إذا اعـترف بوجـود التحـوُّل- ينبغـي بيـانُ أَنَّ خُطـواتِ التَّحـوُّل شرعيَّـةً مُفيـدةً وخصبَـةً، وأن هـذه الخطـوات تُعطينـا -بالتَّـالي- مَعرِفَـةً دقيقـةً بالدِّرامـا، وهـي المعرفـة التـي كُنَّـا نتطلَّبُهـا مـن السـيكولوجيا منـذ نشـأتها.

ويجـب علينـا خاصَّـةً -والأجـدر أن نبـدأ مـن هنـا- أن نُثبِـتَ أنَّ هـذه الاتجاهـاتِ التـي أَلْمَحْنـا إليهـا قـد صَـدَرَت عـن التحـوُّل، لا في تركيباتهـا النظريـة وحسـب، بـل وفي سَيْرِها نحـو الاكتشـافات الجديـدة؛ لأن التَّركيبـاتِ النَّظريَّـة لا تعنـي شـيئًا سـوى تَخوُّفِهـا مـن الميتاسـيكولوجيا.

ويكفينـا هـذا الالتـزامُ؛ لأنـه يعنـي أن تـدورَ المُناقشـاتُ حَـولَ الخُطـواتِ الأساسـيَّةِ للسـيكولوجيا؛ ذلـك أنَّـه يَجِـبُ عـلى كُلِّ نَقـدٍ يدَّعـي أنـه يتنـاول -فعـلًا- أُسُـسَ السـيكولوجيا أَنْ يسـتهدف الخطـواتِ التـي تُهَيْمِـنُ عـلى أسـاليب حصـول السـيكولوجيا عـلى وَقائِعِهـا ومفاهيمهـا، وأن يُصـدِرَ حُكمَـه عـلى عَـدَدِ وشرعيَّةِ هـذه الخُطُـواتِ. وكلُّ محاولَـةٍ ترمـي إلى حَـلِّ الأزمـة الراهِنَـةِ لا تسـتطيع أن تُغْفِـلَ مثـل هـذا النَّقـدِ؛ لأنـه الوحيـدُ القـادرُ عـلى إعطـاء تعريـفٍ واضِـحٍ لا لَبْـسَ فيـه للسـيكولوجيا.

فـإذا كانَـت سـيكولوجيا خاطِئَـةً؛ وَجَـبَ التَّخَـلِّي عنهـا، وإذا كانـت "قبـل- عِلميَّـة"؛ وَجَـبَ تَخطِّيها. ويُمكِنُنـا أن نَحكُـمَ عـلى كُلِّ ادِّعـاءاتِ إصـلاح السَّـيكولوجيا مـن خـلال الوضـوحِ الَّـذي تـأتي بـه في هـذه النُّقطَـةِ بالـذَّات.



البَابُ الثَّاني

إِلى أَيْنَ تَتَّجِهُ السَّيْكولوچيا العَيَانِيَّة؟

لقد أثار ما عرضناه من شعاراتٍ وبرامِج "السيكولوجيا العيانية" حتى الآن نَوعَيْن من الاستجابات لها مَغزاها، الأولى: المقاومة السلبيَّة، والثانية: التَّسابُق على دراسة السيكولوجيا العَيانيَّة، أمَّا الاستجابة الأولى فتُثبِتُ لنا أنَّ أَشدَّ النُّقَّاد تَحامُلًا على السيكولوچيا الكلاسيكية ما زالوا يناصرونها، والاستجابة الثانية@(هذه الفقرة كانت مفقودة من هذه النسخة، وقمت بالرجوع لنسخة البي دي إف لإثباتها) تأملُ مَرَّةً أخرى في إنقاذِ نَفْسِها بتغيير لُغَتِها.

والاستجابتان تُثبِتان -مَعًا- أن إرادة التجديد عند السيكولوچيِّين أَقَلُّ جدِّيَّةً وإخلاصًا مِمَّا توحي به تصريحاتُهم، وأنَّ هذه الإرادة لا تعدو أن تكون أمرًا يَنحَصِرُ في حدودٍ بِعَيْنِها، مُتَّفَقٍ عليها في الأساس، رغم كل اختلافاتهم، وهي حدود يعجز معظمُ السيكولوچيين عن تَخطِّيها مَهْمَا أدَّى ذلك إلى اندثار السيكولوچيا توًّا، وهذه الحدود هي التي تجعل "حلَّ الأزمة" و"التجديد" موضوعاتٍ أكاديميَّةً صِرفًا، تقبلُ المناقشة إلى ما لا نهاية.

فالواجب إذًا أنْ نكشف عن الطبيعة الحقيقيَّة لهذه "الحدود"، ولكي يتمَّ ذلك علينا أن نتجنَّب استخدامَ الرَّطانَةِ السيكولوچية المُتنافِرَة في الظاهر، المتشابهة في الواقع.

وهذه الاتجاهات كلها مُتشابِهة ومُتَّفِقَة فيما بينها، وجميعها مِثاليَّة، ونحن نشاهد اليومَ في السيكولوچيا انصهارَ كافَّةِ هذه الاتجاهات في المثالية. وقد نتج عن الحركة الكبيرة للسيكولوچيا الوضعية: انصهارٌ مِثاليٌّ كبيرٌ، ومثالُها: السيكولوچيا اللاهوتية البرچسونية في فرنسا، والسيكولوچيا بوصفها عِلمًا "أخلاقيًّا"[1]، والميتافيزيقا المثالية المتمثِّلة في المذهب المعروف بـ"وحدة الجسم والنفس"[2] في ألمانيا. ولا زال التحليل النفسيُّ بعد انشقاق "يونج" و"آدلر" -وهما أكثر مثاليَّةً من "فرويد"- مُستمرًّا في تَفَتُّتِه، وينتهي إلى محاولاتٍ أكثرَ مثاليَّةً كتلك التي يذهب اليها

(1) Geisteswissonschafliche Psycholgie

(2) Leid-seele Eindeit

"رانك"، أمَّا السلوكية -بالمعنى الدقيق- النابعة من اتجاهٍ ماديٍّ فقد عَجَزَت منذ البداية عن الثَّبات في طريقها الخاص، وتَوَلَّد عنها مُختلفُ أشكال السلوكية غير الفسيولوچية، وكلها مثاليَّةٌ بدرجة أو بأخرى.

وهكذا، يبدو لنا أننا أمام اعترافٍ عامٍّ من السيكولوچيين "بالخطيئة"، وتنافُسٍ على الطَّنْطَنَة في العودة إلى المثالية.

وخيرُ دليلٍ على ذلك هو "السيكولوتكنيك" (القياس السيكولوچي) الذي لم يكن لديه أيُّ مُبرِّرٍ "تكنيكيٍّ" يدفعه إلى المثاليَّة، بل إن لديه كافَّةَ الأسباب التي تجعله غير مثاليٍّ، ومع ذلك فإن نظرياته تَزْخَرُ بالمثاليَّة. وعجز السيكولوچيا الحالية ليس -مع ذلك- إلَّا عَجزًا عِلميًّا للمثالية. والسيكولوچيا -من حيث أنها "علم الروح"- يُمْكِنُها أن تُبيحَ لنفسها أن تكون مثاليَّةً. وأن تكون فَصلًا من اللاهوت، وأداةً للسيطرة والسيادة، وليس هذا هو الحال مع السيكولوچيا كعِلمٍ الَّتي يجب أن تهتمَّ بالظواهر الحقيقية، والتي لا يُمكِنُ إلَّا أن تكون ماديَّةً.

فهناك إذًا أزمة في السيكولوچيا، ولكنها أبسط وأوضح ممَّا نتصوَّر، وتتمثَّل هذه الأزمة فقط في أن السيكولوچيا مثاليَّةٌ في الوقت الذي ينبغي أن تكون فيه ماديَّةً[1]. وبعبارةٍ أخرى، يَوَدُّ المِثاليُّون أن يقوموا بوظيفة الماديِّين، ولن يمكن للسيكولوچيا أن تصبح عِلمًا إلَّا بالتخلِّي عن المثالية، في حين يَعجَزُ السيكولوچيُّون المعاصرون عن التخلِّي عن المثالية. وهذه الأزمة حقيقيَّةٌ بالنسبة للسيكولوچيا العِلميَّة نفسها؛ فالمحاولات الأكثرُ خصوبةً إنَّما هي ذات اتِّجاهٍ ماديٍّ، فهي تُوصِلُ السيكولوچيا بالفعل حتى آخر حدودِ المثالية، غير أنَّها لمَّا كان سَنَدُها النظريُّ لا يعدو تلك الأشكالَ النَّاقِصَةَ للماديَّة، التي لم تَعُدْ اليومَ إلَّا ملجأً للمثاليَّة؛ فإن المثاليَّةَ تَتغلَّب من جديد، وتُصيبُ بالعُقْم أفضلَ المُحاولات، وهذا أمر طبيعيٌّ بالنسبة لارتباط السيكولوچيين -من حيث أُصولِهم وتُراثِهم وكُلِّ نَشاطِهم الخاصِّ والمِهنيِّ- بالإيديولوچية البورجوازية. وهذا هو السبب في أن السيكولوچيِّين لا يرون سوى هذه الأشكالِ النَّاقِصَةِ من الماديَّة، المسموح بها رسميًّا لهذا السبب، مثل مادية الفسيولوچيا والطب. وهذا هو السَّبب في أن جهل السيكولوچيين بالشَّكل الكامل للماديَّة إنَّما هو -بالقياس اليهم- مسألةٌ "مِزاجيَّةٌ". وتَوَلَّدَ عن ذلك التَّناقُضُ

(1) لا يخفى على القارئ الطَّابَعُ الماركسي في هذا النقد.

بين ما يتضمَّنه تحويلُ السيكولوچيا إلى عِلم، وبين ما تدعو إليه "أَمْزِجَةُ" الفلاسفة البورجوازيِّين أو الأطبّاء "ذوي المادِّيَّة المُزيَّفة" من السيكولوچيِّين[1]، وكانت النتيجة أنْ ظَلَّت السيكولوچيا جامِدَةً في مكانها.

والسيكولوچيا العَيانِيَّةُ هي بالذات السيكولوچيا التي تلغي كلَّ أَثَرٍ للمثالية في علم النفس. وهي السيكولوچيا المادية التي تتَّخِذُ الموقفَ الوحيدَ القادِرَ على ضمان مستقبلٍ علميٍّ للسيكولوچيا. ولكنها في الوقت نفسه ترتبط بالمادِّيَّة المعاصرة، النَّابِعَة من "ماركس" و"آنجلز"، والمُسمَّاة بـ "المادِّيَّة الجَدليَّة". وتحتاج السيكولوچيا إلى مادِّيَّةٍ كامِلَةٍ لا تتوافَرُ إلَّا في المادِّيَّة الجَدَلِيَّة، وإذا ما جعلنا منها نُقطةَ انطلاقٍ؛ أَمْكَنَ للسيكولوچيا أن تُصبِحَ عِلمًا؛ لذلك أحسَّ السيكولوچيُّون الذين خاطبناهم إحساسًا عميقًا بأنها هي القاعدة النظريَّةُ النهائية للسيكولوچية العَيانِيَّة، وهكذا، لم نجد أمامنا إلَّا المُقاوَمَة السَّلبيَّة من جِهَة، والتسابق على السيكولوچيا العَيانِيَّة من جهةٍ أخرى. وهل يمكن حَقًّا أن يَقْبَلَ المثاليُّون العَمَلَ ضدَّ المثالية؟ أَلَنْ تُسَوِّلَ لَهم نفوسُهُم اقتناصَ هذه السيكولوچيا المُعادِيَة للمثاليَّة بإلقاء شِباكِ المثاليَّة فَوقَها، وقبل أن تفلِتَ منهم نهائيًّا سطوة ما هو "عياني"؟

وبالنسبة للنقطة الأولى نَجِدُ التَّباكِي على الأزمة، وإلقاء المواعظ من أجل الوحدة، وتَمَنِّي النَّهضَة لعلم النفس، إلَّا أنَّ هذا لا يعني سوى شيء واحدٍ، وهو: أن يذهبَ عِلمُ النَّفس إلى الجحيم، ولتَبْقَ المثاليَّة.

أمَّا بالنسبة للنُّقطَةِ الثانية فقد فات وقتُ الاصطياد، وإنْ كانت مُناوَرَةُ التَّسابُق تعطينا فرصةً رائِعَةً لِنُبيِّنَ بالضَّبط إلى أين تذهب السيكولوچيا العَيانِيَّة، دون أن نكون مُلزَمين هذه المرَّة باستعمالِ اللُّغَة الفنِّيَّة للسيكولوچيا.

فمَن يستطيع إذًا أن يشكو من قِلَّةِ الوضوح في الموقف داخل السيكولوچيا؟ سوف نَجِدُ من جِهَةٍ هؤلاء الذي يؤيِّدون قبل كلِّ شيءٍ النِّظامَ الاجتماعي وإيديولوچيَّته ويرفضون الاشتغالَ بالعلم إلَّا في حدودهما، ومن جهةٍ أخرى سوف نجد الرَّاغبين في القيام بأبحاثٍ عِلميَّةٍ بلا "حدود"، أي بغير"غمامَةٍ" تحدُّ رُؤيَتَهم.

(1) تشير هذه العبارة إلى الاتجاه السائد لدى علماء النفس في فرنسا إلى دراسة الطب.

-1-

ورغـم أنـه لا يوجـد -تقريبًا- مَـن يريـد أن يعمـل معنـا بشـكلٍ جـدِّيٍّ، إلَّا أن الـكُلّ يريـد الاسـتفادة مـن سـطوة مـا يُنعَـتُ "بكلمـة" عَياني، وقبـل أكثر قليـلًا من سَـنَةٍ كانت السـيكولوچيا العَيانِيَّـة هـي آخـر مـا يهتـمُّ بـه السـيكولوچيون الفرنسـيُّون؛ لانشـغالهم في تدعيـم الفلسـفات الرُّوحيَّـة، والمحافظـة عـلى الاتجاهـات المدرسـية، انشـغالًا لم يـترك لهـم مجـالًا للاهتـمام بالظَّواهـر السـيكولوچية حَقًّـا. ولكـن الأمـور تغـيَّرَت بسرعـة لم يَعْهَدْهـا التقـدُّمُ في فرنسـا منـذ الثـورة. والتَّقـدُّم الـذي حـدث هنـا ليـس هـو التَّقـدُّمَ بالمعنـى العـادي للكلمـة، ولكنـه تَقـدُّمٌ ذو أثـرٍ رجعـيٍّ. فقـد حدثـت ظاهِـرَةٌ مُثـيرَةٌ بعد أن نشرنـا كتابنـا الأول "نقـد أُسُـس السـيكولوچيا، رايـدر، باريـس، 1928"، الـذي شرحنـا فيـه السـيكولوچيا العَيانِيَّـة لأوَّلِ مَـرَّةٍ، فوجدنـا أشـدَّ السـيكولوچيين تجريـدًا "يرتـدُّون إلى أنفسـهم" بصـورةٍ دراميَّـةٍ، واكتشـفوا -فجـأةً- أنهـم كانـوا منـذ وقـت طويـل أنصـارًا للسـيكولوچيا العَيانِيَّـة، فلقـد اكتشـف الجهابِـذَةُ مـن أسـاتذة السـيكولوچيا التجريبيـة أنهـم لم يَشْـغَلوا أنفسَـهم أبـدًا بالسـيكولوچيا التجريديـة، (وهـذا اعـتراف منهـم بأنهـم لم يكونـوا يـدرون مـا يدرسـون). أمَّـا الذيـن لم يقومـوا بأنفسـهم بهـذا الاكتشـاف فقـد تَكفَّـل بـه آخـرون لحسـابهم، حتـى إننـا نسـتطيع القـول بأنـه لا يوجـد في فرنسـا اليـومَ سيكولوچـيٌّ واحِـدٌ يتجاسَر عـلى التصريـح بعَدائِـه للسـيكولوچيا العَيانِيَّة.

ولـو قرأنـا كلَّ الخطابـات التـي وصلتنـا، وكُلَّ مـا قيـل وكُتِـبَ بخصـوص موضـع "السـيكولوچيا العيانيـة"؛ لَخُيِّـلَ إلينـا أن فرنسـا لم تُنْجِـب منـذ "فيرسـانجيتوريكس"[1] حتـى ظهـور السـيد "برچسـون" سيكولوچـيًّا "تجريديًّـا" واحـدًا.

وقـد كتـب لنـا الفيلسـوف البـارع السـيد "برنشـفيك" (الـذي يبـدو أن السـيكولوچيا تديـن لـه بالكثير): "لم أَكُـنْ أبـدًا نَصيرًا لسـيكولوچيا القـرن التاسـع عـشر التجريديـة التـي تتكلَّمـون عنهـا".

(1) الـچنـرال "فيرسـانيجتوريكس": سـياسيٌّ، وقائـدُ شـعب الغـال في معركتـه ضـد يوليـوس قيـصر، ويُعتَـبَرُ أوَّل مَـن وحَّـد الفرنسـيين، ووضـع اللبنـة الأولى في بنـاء فرنسـا. "لاروس". (المترجـم).

أمَّا أستاذ مناهج البحث المعروف بالسوربون، السيد "لالاند" (وهو مَن تَدينُ له السيكولوچيا أيضًا بالكثير) فقد شَرَّفَنا بتذكيرنا بمحاضراته في السوربون، التي تكلَّم فيها عن السيكولوچيا العَيانِيَّة[1].

وكتب لنا السيد "سباير" يقول: "أنا مُتَّفِقٌ معكم في ضرورة البدء من العياني، والرجوع دائِمًا للعياني"، ويستطرد قائِلًا: "ولماذا لا تذكرون أن السيد (لالاند) تكلَّم منذ أَمَدٍ بعيد عن السيكولوچيا التي تدرس الدراما؟ (انظُرْ المدخل المنهجي بالمجلَّد الأول من كتاب ديما). ولماذا لا تتبيَّنون أن (دي لاكروا) ينطلق أساسًا من الدراما في دراساته للحياة الدينية، وفي تحليله للعلاقات الحَيَّة بين الفكر واللُّغَة".

وجملة القول: كان الجميعُ عَيانِيِّين، وما يزالون، ولم يتحدَّث كلُّ الكُتَّاب إلَّا عن الدراما، ولم يوجد في العالم إلَّا السيكولوچيا العَيانِيَّة، وأن المؤلفين في السيكولوچيا قد كرَّسوا دائِمًا كُلَّ أعمالهم للسيكولوچيا العَيانيَّة.

ولا شَكَّ أن التَّسابُقَ على دراسة السيكولوچيا العَيانيَّة له دلالته، وكان بإمكاننا أن نكتفي بتسجيل انتصارنا ببضع "كليشيهات" تقليدية مناسبة: "السيكولوچيا العَيانِيَّة ضرورةٌ لعصرنا". "لقد وُجِدَت السيكولوچيا العَيانِيَّة بحالَةٍ كامِنَةٍ من قَبْلُ عند (أسلافنا)". "لم تَكُنْ السيكولوچيا تحتاج إلَّا للوعي بكيانها". "لقد نلنا شرفَ التعبير عن زماننا"... وكان في إمكاننا أيضًا أن تكتفي بتبادُلِ التَّهاني المألوفَةِ، فنشكر الذين فهموا مَقاصِدَنا؛ أولئك الذين منحونا شرفَ أنَّنا فهمناهم فحسب. ولو كُنَّا فعلنا ذلك لَتَحوَّلَت السيكولوچيا العَيانيَّة إلى نوعٍ من "البقدونس"؟[2]

إلَّا أنَّ هناك ثَمة سببان يدعواننا إلى أن نكون أقلَّ سذاجَةً وأكثرَ تَشدُّدًا. فلدينا فكرة عن مدى الصِّدق، وكذلك عن الطابع الحقيقي لِثَمَنِ هذه الانتماءات العَيانِيَّة. كما أننا أَبْعَدُ من أن نكونَ قد تَوصَّلنا إلى التعريف الدقيق للاتجاه الحقيقيِّ لِما نُسمِّيه بالسيكولوچيا العَيانِيَّة، وليس لدينا الشجاعة ولا الرغبة في أن نقود كلَّ الذين يريدون الالتحاقَ بِرَكْبِنا في طُرُقٍ لا يعرفون هم إلى أين تسير. وخاصَّةً أن بينهم أشخاصًا يفوق حَظُّهم من التوفير في النفوس حَظَّنا منه.

(1) نَوَدُّ أن يشرح لنا مسيو "لالاند" -هنا أو في أي مكان آخر- مفهومه لهذه السيكولوچيا آنذاك؛ لأننا لا نتذكَّر شيئًا من هذا القبيل. (المؤلِّف).

(2) tarie à la crème عبارة فرنسية دارِجَة، تُشير إلى ما يتكرَّر استخدامه أو الحديث عنه في كل مناسبةٍ بغير تمييز.

ولدينا إحساسٌ بأنه بعد التَّوصُّل إلى هذا التعريف الدقيق سوف تَقِلُّ المعارك الدائِرَةُ حول العنوان، وسوف يتوقَّف التَّسابُقُ على السيكولوچيا العَيانِيَّة، وعندئذٍ سوف يتحوَّل "البقدونس" إلى سُمٍّ في أفواه الذين تَعجَّلوا التهامَه.

-2-

لقد شاهدنا طوالَ نصف قَرنٍ المنظرَ التالي: لا يوجد سوى التنظيم اللاهوتي[1] المدرسي للروح في مجال التعاليم النفسية. أليس معنى السيكولوچيا هو "علم الرُّوح"؟ والروح أداةٌ لاهوتية: ولو لم يكن هناك أناس لهم روح -على رأي أهل اللاهوت ومَن يخدمون مَذهَبَهم- لَمَا أمكن الاحتفاظ بفكرة الروح، ولَكانَ الذين ينفخون نيران الروحانية ينفخون في رماد. أمَّا بالنسبة لكلمة "علم" فهي لا تعني هنا معرفةً، ولكن تنظيمًا عَقلانيًا: ترتيبًا مَظهريًا مُحَلَّقًا، وغالِبًا: هستيريًّا، وخاصَّةً بالنسبة للروحانيين المضطربين أمثال السيد "برچسون"، فتعريف علم النفس بأنه علم الرُّوح هو تعريفٌ يفضح نفسه بنفسه.

ولكن جاء عصرُ العلوم الطبيعية، وأراد علم الروح أن يُصبِحَ عِلمًا طبيعيًا؛ فارتدى رجال اللاهوت الملابسَ البيضاء، وأخفوا القِدِّيس توماس (الأكويني) في أسطوانات التسجيل. وما دام العصر قد أصبح عَصرَ التَّصريحات الوضعيَّة وإنشاء المعامل، وحلَّت تعبيراتُ "الحساب" و"القياس" محلَّ عبارات "الروحانية ذات الحرية والخلود"؛ قرَّر رجالُ اللاهوت أن يدخلوا المعركةَ بهذا الجزء من قُوَّاتهم، التي عُرِفَت فيما بعدُ باسم السيكولوچيين التجريبيين، أو العلميين... إلخ، ولم يكن ما يهمُّهم هو التَّمَسُّك بالألفاظ، بل إنقاذ المضمون. وعلى عكس ما نظنُّ، كان هذا "تكتيكهم" الحقيقيّ، بل كان أيضًا قانونَ تَطوُّرِ السيكولوچيا خلال الخمسين أو الستين عامًا الماضية: تغييرُ الشكل لإنقاذ المضمون.

(1) لا يخفى على القارئ ما دَرَجَ عليه الماركسيُّون من استخدامهم لكلمة "اللاهوت" بغير تمييزٍ في نقدهم لبعض المذاهب الفلسفية والعلمية والاجتماعية.

فليس كُلُّ مَن ارتدى رداء الكهنوت بِكاهِنٍ، ومن هنا يمكن للكاهن أن يتخلَّى عن مُسوحِه البُنِّيِّ اللون، ويستبدل به رداءً أبيض، ويظل -رغم ذلك- كاهِنًا؛ إذْ لَمَّا كان المضمون في خَطَرٍ؛ فلا يهمُّ تغيير الشكل، وعلى الأصح: كان أهمُّ شيء بالنسبة لهم هو تغييرُ هذه الواجهة؛ فَقَبِلوا كلَّ أشكال الإخراج، وعلى أي صورة من الصور. فإذا احتاج الأمرُ إلى التَّنكُّر في شكل علماء فسيولوچيا فلا مانع، ولو استدعى الأمر أن يتحوَّلوا إلى غُدَدٍ صمَّاءَ فلا مانع... وهكذا، أثبت رجال اللاهوت أنهم أَحْذَقُ من صنائِعِهم دكاتِرَةُ الطِّبِّ والعلوم؛ فعملوا عن إنجاح كلِّ هذه الكرنڤالات الهَزليَّة للأطبَّاء الفلاسفة، والقصاصين الفيسولوجيين؛ لأنهم لم يكونوا يؤمنون بنجاحها الحقيقي. وهم يعلمون جيِّدًا أن في مقدرتهم أن يستمتعوا بشكلٍ دَوريٍّ -بواسطة صنائِعَ أخرى مثل السيد "برچسون- بِلَذَّة الإدانة العَلَنيَّة لعجز هؤلاء الذين لم ينتابهم العَجْزُ إلَّا لأنهم كانوا في خدمة اللاهوت.

ولقد تعوَّد الحُفَّاظُ على لاهوت الروح أن يتابعوا تَقلُّبات الحركة السيكولوچية خطوةً خطوةً؛ فكُلُّ ما يُنقِذُ لاهوتَ النَّفْسِ يكون حَسَنًا، وسيكون كُلُّ شيء حَسَنًا أيضًا في المستقبل، بما أنَّ ما يقدمونه من اختراعات جديدةٍ ملائِمٌ لِذَوْقِ العصر. ولقد أثبَتَت الكنيسةُ دائمًا أنها تتمتَّع بحاسَّةٍ تجاريَّةٍ مرهفة، كما استطاعت دائمًا أن تَعرِضَ بضاعَتَها بالأسلوب المناسب؛ فقد بحَثَت دائمًا عن الشكل الذي يَفْتِنُ الجمهور لِتُقدِّمَ به بضاعتها القديمة، وهذه هو بالدِّقَّة نفسُ التكتيك الذي تَتَّبِعُه مع السيكولوچيا العَيانِيَّة، فالسيكولوچيا العيانية ينبغي ألَّا تكون غير مَرحَلَةٍ جديدة، حلقة جديدة في السلسلة القديمة؛ فهم يتصوَّرون أن "العياني" هو" موضة العصر"؛ ولذا فقد تَبَنَّوا الأسلوبَ العَيانِيَّ؛ لأن هذا هو مطلَبُ اليوم، وهم يَتَمنَّون أن تكون محاولتنا للتصفية النهائية لسيكولوچيا الروح "ضعيفةَ المفعول"، شأنها في ذلك شأن المحاولات السابقة، فهم لا يريدون أبدًا أن نكون مُورِّدين لصنف جديد، أمَّا إذا اقتصر الأمرُ على تغليف البضاعة وتسليمها فلا مانِعَ لديهم من إعطائنا هذا الحَقَّ على أن يظلُّوا هم أصحاب الامتياز.

لذلك يقول الجميع إنَّهم مُتَّفِقون معنا "من حيث المبدأ"، ولكن ما هو هذا المبدأ؟ فكلُّ واحدٍ يريد أن ينسب لنفسه اسمَ "السَّيكولوچيا العَيانِيَّة"؛ لأن كُلَّ واحدٍ يريد أن يبدو هو المنقذ للكَنْزِ القديم، والكُلُّ يُطالِبون بإطلاق هذه التسمية على لاهوت الروح العجوز، الذي يرغبون جميعًا في إنقاذه. وكل ما

يطمع فيه أيُّ واحدٍ منهم هو أن يُعْتَرَفَ له بأنَّه صاحِبُ الفَضلِ في ذلك أكثر من الآخرين.

أمَّا البعض الآخر فيتصوَّر أنه أكثر مهارةً وحذقًا، وهم في الواقع مجرَّدُ سُذَّج، إنْ لم يكونوا شَرًّا من ذلك. فعلى سبيل المثال، قال لنا السيد "برنشفيك" -لكي يبرِّر مَوْقِفَه- إنه كان دائِمًا مُناصِرًا لـ "مين دي بيران"، ولمَّا كُنَّا قد جعلنا من الدراما موضوعًا للسيكولوچيا العَيانِيَّة قال لنا السيد "سباير": "تقولون مَثَلًا إنكم لا تعرفون معنى الحَدْس، والحَدْسُ هو (الحدث) الحاسم في دراما البحث الصوفي والفلسفي والعلمي والفني". وهكذا حلَّت البركات على الجميع، فقد بدأ "برچسون" بالتأكيد من ظاهرة "دراميَة" حين جعل الحَدْسَ أساسًا لمذهبه. أمَّا السيِّد "سباير" فيأخذ علينا فَهْمَنا الضَّيِّقَ للعَياني؛ إذ إنَّ العياني -في الواقع- يَجِبُ أن يكون الإطارَ الجديدَ الذي يتحتَّم أن يدخل فيه الآن المَذهبُ المدرسيُّ ذلك؛ لأن "في أعماق كُلِّ دراما -بلا استثناءٍ- نجد دائِمًا (الكلِّيَات) الفلسفية)"[1]، فالإنسان تُحرِّكه دائمًا أفكارٌ، واتجاهاتٌ، وعواطِفُ، وعُقَدٌ؛ أي: يتأثَّر بهذه الكليات. وهذا يعني أننا سنواصل الاشتغالَ بالسيكولوچيا الكلاسيكية، وإِنْ كُنَّا سنسمِّيها دراما. وسنحتفظ بنظرية الروح بأكملها، ولكننا سَنُسمِّيها "نظرية عيانية"، وهذا كلُّ ما في الأمر، ففكرة السيكولوچيا العَيانِيَّة ليست لها هنا إلَّا أهمِّيَّة ضئيلة، الشيء الأساسي هو أنَّ لدينا إحساسًا بأن العياني هو "الموضة"؛ ولهذا يُعلِنُ الجميعُ أنهم مُتَّفِقون من حيث المبدأ. وهذا طبيعيٌّ بما أنَّ الجوهر لم (ولن) يتغيَّر. هذا هو لُبُّ الموضوع. فلو أننا دَعَونا إلى سيكولوچيا "مائِيَّة" بدلًا من السيكولوچيا العَيانِيَّة، ولو استبدلنا "الدراما" بـ "الطريق اللبني"[2] La voie lactée لموضوع للسيكولوچيا؛ لقال الجميع أشياءَ مُماثِلَةً، وذلك بشرط أن تكون السيكولوچيا المائية هي "الموضة".

(1) الكليات Les universeaux عند المَدْرَسِيِّين هي المعاني المُجرَّدة: الجنس والنوع والفصل... إلخ.

(2) الطريق اللبني اصطلاح في علم الفلك يطلق على تلك المجموعة من النجوم التي تنتمي إليها المجموعة الشمسية. وتتجمَّع النجوم عادةً في مَجرَّاتٍ تتألَّف كلٌّ منها من بلايين النجوم التي تتحرك وتَظلُّ معًا كوحدةٍ واحدة. وتوجد غير مجرَّتنا -المعروفة باسم الطريق اللبني- مجرَّاتٌ أخرى تسبح في الفضاء كأقراصٍ مضيئةٍ، وهي ما تراه من سطح الأرض كَسُحُبٍ باهتة في السماء أثناء الليل: ويُقدَّر عددٌ من المجرَّات بنصف بليون مجرَّة (المترجم).

ولقال لنا السيد "برنشفيك" عندئذٍ: "لقد كنت دائمًا مُناصِرًا لهذه السيكولوچيا المائية التي تتحدَّثون عنها. وهكذا أحببتُ دائمًا (دي بوسي)"[1].

ولكانوا قد ذكَّرونا أيضًا بمناهج السوربون -في أيام دراستنا- حيث تعرَّضوا للسيكولوچيا المائية. وهل هناك موضوعٌ لم تَطْرُقْهُ مناهِجُ السوربون!.

ولَعَبَّر لنا حينئذ السيد "سباير" عن نفسه قائلًا: "أُوافِقُكُم على ضرورة البَدْءِ بالسيكولوچيا المائية... ولكنكم تقولون -مَثَلًا- إنكم لا تعلمون ما هو (الحَدْس)؟ أَلَيْسَ الحَدْسُ هو (الفِعْلُ) المبدئيُّ لهذا (الطريق اللبني)، والنَّاتِجُ عن البحث العلمي والفلسفي والصُّوفيِّ والفَنِّيِّ؟".

سيحاولون إنقاذَ السيكولوچيا الكلاسيكية -ومعها لاهوت الروح- باسم "المائية"، و"الطريق اللبني".

وحين يقولون لنا: "نحن مُتَّفِقون على المبدأ، أمَّا من حيث..."، فَهُم يُعبِّرون لنا -بوضوحٍ- عن حقيقة نواياهم. وحيث إنهم جميعًا مُتَّفقون فيما بينهم؛ فإنهم يعتقدون باستحالة وجود أيِّ خلاف حقيقي، وحيث إنهم جميعًا أتباعٌ مُخلِصون (عن وَعيٍ أو عن غير وعي. بفائِدَةٍ، أو بغير فائِدَةٍ) لِلَّاهوت؛ فلا يُمكِنُهم تَصوُّر فكرة وجود سيكولوچيا لا تَخْدِمُ اللاهوت. وكأنَّما يريدون أن يقولوا لنا: "يجب أن تكونوا مُتَّفقين معنا في الجوهر، فلا تحاولوا الظهور بعكس ذلك، ولا تُثيروا المشاكِلَ؛ فخَيْرُ الأمورِ الوَسَط. وإن تصريحاتكم تُعَدُّ إنذارًا يدعونا لتغيير لُغَتِنا، وسنفعل هذا بكلِّ سرورٍ؛ فنحن مُعتادون على مُغامَراتِ الاصطلاحات، وذلك -بَعْدُ- يُجدِّدُ لنا شبابَنا، ولكن لا داعِيَ لِتعدِّي هذه الحدود، ولا داعي للمُبالَغَة من ناحيتكم، ولْتَكْتَفُوا بالنَّجاح الذي نَمْنَحُكُم إيَّاه، حتى يَحِينَ الوقتُ -بَعْدَ أن تَكونوا قد دافَعْتُم عَنَّا دفاعًا مَجيدًا- ويُصبِحَ عَلَيْكُم أَنْ تُناضِلُوا مَعَ مَن سيُدافِعُ عَنَّا خَيرًا مِنْكُم"- هذا هو هدفهم، وتلك هي المسألةُ الرئيسية في هذا الجَدَل، غير أنه لم يَعُدْ للتُّراث الخالِدِ السَّيطرَةُ على كُلِّ الناس. ونحن نعتقد أنه تقع على عاتِقِ السيكولوچيا الجديدة مَهَمَّةٌ أخرى أَفْضَلُ من إنقاذ اللاهوت، وأن السيكولوچيا العَيانِيَّةَ ليست -بِبَساطَةٍ- غُلافًا للسيكولوچيا الكلاسيكية.

---

(1) دي بوسي: 1862 - 1918 مؤلِّف موسيقيٌّ فرنسيٌّ له مقطوعة أوركستراليَّة شهيرة اسمها "سيمفونية البحر"، تأثَّر فيها بأصحاب المدرسة الانطباعية في الرسم. (المترجم).

-3-

إذا كان هناك تُراثٌ عظيمٌ تنتمي إليه السيكولوچيا العَيانيّة فهو التراث المادي، قَطعًا؛ فهو يرمي إلى أن تكون السيكولوچيا بدون "حياة داخلية"[1]، خصوصًا عندما يتعلّق الأمر بالعمليات processus، فهو لا يعترف بأيّة عمليات خارج نطاق العمليات الماديّة. ويهدف النَّقدُ الذي يقوم على أساسه إلى إثباتِ الطَّابَعِ الأسطوريِّ لمذهب "الحياة الداخلية". ويدور مشروعنا كلُّه حول المطامع الكبرى والأساسية للمادية في السيكولوچيا: فالسيكولوچيا العَيانيّة والسيكولوچيا المادية هما بالنسبة لنا مترادفتان، كترادُفِ السيكولوچيا الوضعية والسيكولوچيا العَيانيّة تمامًا.

غير أنه يَعُدْ من الممكن أن نكتفي بوصف السيكولوچيا "بالوضعية"، نظرًا للظُّروف الراهنة في السيكولوچيا. فكل السيكولوچيِّين -أيًّا كانت اتجاهاتهم- ينسبون الوضعيّة لأنفسم. فيتصوَّر أنصار النظرية الفسيولوچية القديمة أنهم يحتكرون الوضعيَّةَ باسم أجهزتهم القياسية ومتوسّطاتهم الإحصائية، وأنصار السيد "برچسون" يدَّعون أنهم أصحاب وضعيَّةٍ "أرقى"، ناتجة عن تَقلُّصاتهم الحَدْسيَّة. وكما اعْتُبِرَ استخدامُ الأدواتِ المَعمليَّة في الفسيولوچيا في القرن الماضي انتصارًا للوضعيَّة، فها هو "الاعتراف بالطَّابَعِ النَّوعيِّ للظواهر السيكولوچية" يُعْتَبَرُ اليومَ انتصارًا آخرَ للوضعيَّة. وقصارى القول أنه حتى لو عاد القدِّيس "توماس" إلى الأرض من جديد فلن يتردَّد بدوره في أن يفرض علينا سيكولوچيّةً باسم الوَضعيَّة. ومعنى هذا أن الوضعية في مجال السيكولوچيا قد صارت مجرَّدَ عنوانٍ مُتعارَفٍ عليه، بينما غرق معناها الأساسي تمامًا في المجادلات وفي مُطالَبَةِ الجميع بها شكليًّا؛ لذلك كان من الضروري نسيانُ كلِّ الفروق الطفيفة، والارتفاع فوق كل الاتجاهات، وأن نرجع إلى المفهوم البسيط للوضعيَّة، وأن نذكر ما نَسِيَه الجميع في خِضَمِّ المعركة، وهو أن العلم الوضعي يجب أن يدرس الظواهر الحقيقية. وكان ينبغي إذًا تصفية كل الاعتراضات التي ظهرت في المعركة السيكولوچية إلى

---

(1)المقصود بـ "حياة داخلية" ما كان يذهب إليه بعض الميتافيزيقيِّين من وجود حياة داخلية بما هي "جوهر" مستقل.

التعـارُض الحقيقـي الوحيـد، وهـو التَّعـارُض بـين السـيكولوچيا التـي لا موضـوعَ لهـا سـوى الأسـطورة والسـيكولوچيا التـي موضوعهـا الظواهـر الحقيقيـة. وهـذا هـو المغزى الأول للتعـارُض بـين السـيكولوچيا العَيانِيَّـة والسـيكولوچيا التجريديـة. ونحـن عندمـا نسـتخدم تعبـيرَ "سيكولوچيا عَيانِيَّـة" فإنمـا نريـد فقـط أن نسـجِّل في مُقدِّمَـة برنامـج السـيكولوچيا الـضَّرورةَ المُلِحَّـة اليـوم، وهـي الاهتـمام بالحقائـق.

ومـن هنـا نـرى أن المطلـوب هـو اخـتراع "سـيكولوچيا جديـدة". فالسـيكولوچيا العيانيَّـة ترتبـط -ببسـاطةٍ- بـإرادة هـؤلاء الذيـن يطالبـون -أو طالبـوا- بسـيكولوچيا يمكنهـا أن تكـون عِلـمًا، لا أن تكـون عَرَضًـا، عـلى المسـتوى اللاهـوتي- الدوجماطيقـي لِـما يجـب أن يؤمـن بـه "الشَّـعبُ" ليظـلَّ النظـامُ الاجتماعـيُّ قائِمًـا. وهـي تؤكِّـد هـذه الإرادة في هـذه النقطـة الهامـة، وتبـيِّن وسـيلة تحقيقهـا.

وكان مـن الممكـن أن نكتفـي بتعبـير السـيكولوچيا الماديـة، لـو أن السـيكولوچيا الماديَّـة كانـت شـيئًا جاهِـزًا، ولم تكُـنْ شـيئًا يطلـب إنجـازه، هـذا مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى فلسـنا بِصَـدَدِ تَعزيـز مـا يُقصَـدُ -عـادةً- بكلمة "الماديـة" في السـيكولوچيا، أي: السـيكولوچيا التـي تنحـو نَحْـوًا ماديًّـا matérialisante، وهـي ليسـت ماديَّـةً matérialiste بالفعـل (الماديـة المبتذلـة)، فنحـن لا نعمـل اليـومَ عـلى إحيـاء هـذه المواقـف الناقصـة، في مواجهـة الهجـوم الحـالي التـي تقـوم بـه الروحيـة والمثاليَّـةُ بِعامَّـةٍ، فقـد اسـتُخْدِمَت تلـك المواقـف في لحظـةِ ظُهورِهـا كوسـائِلَ للتَّعبـير عـن المقاصـد الماديـة، ولكنهـا كانـت عاجِـزَةً في الواقـع عـن هَـدْمِ صَرْحِ الرُّوحيَّـة، وأصبحـت اليـومَ ماديَّـةً "تعبيريـة" démonstratif، تُثبِـتُ الرُّوحيَّـةُ عـن طريقهـا مَناعَتَهـا وعـدم قابليَّتهـا للهزيمـة. فالأمـر يتعلَّـق هنـا بأشـكال الماديـة التـي لم تَعُـدْ تُمثِّـل سـوى المُكمِّـل الرسـمي للرُّوحيـة، وتقـوم بـدور الممثِّـل المسـاعد في كوميديـا السـيكولوچيا. فالماديَّـة الكاملـة والعلميـة بالفعـل هـي شيءٌ آخـر غـير ماديـة الفسـيولوچيين والأطبَّـاء ذات النقـد السـاذج، ويقتـضي تحقيقهـا في السـيكولوچيا تَغَـيُّرًا جذريًّـا في الطريقـة التـي تُصـاغ بهـا المشـاكل الرئيسـية، وكذلـك في الوسـائل المُسـتَخدَمَة في حَلِّهـا.

فـما هـو الطريـق الـذي تسـلكه الماديَّـةُ التقليديَّـةُ في مجـال السـيكولوچيا؟ إنهـا تحـاول أن تُفـسِّر الجوانـب "الروحيـة" بواسـطة المـادة: الجهـاز العصبـي، والأحشـاء، والغُـدَد الصَّـمَّاء، والكائِـنِ العضـويِّ كَكُلٍّ، وتلـك أكـثر الطـرق كلاسـيكيَّةً. ولكـن لم

تتمكَّن أيٌّ من هذه المحاولات أن تَصِلَ إلى هدفها، فقد اضطُرَّت منذ البداية أن تَعْهَدَ بِكلِّ شيءٍ إلى التحسينات المُقبِلَة في وسائل البحث العلمي، وأن تكتفي باختراع روايات لم تُؤَدِّ إلَّا للعودة الظَّافرة للروحية، وبهذا تأكَّدَت الأسطورةُ القائلة بأن السيكولوچيا لن تقوم لها قائِمَةٌ بدون الرُّوحيَّة. ولقد كان الفشل المتكرِّر للسيكولوچيات المُستَوحاة من الماديَّة يرجع إلى النقص الأساسي في الوسائل المُتاحة للماديَّة التي يستوحونها؛ ذلك لأن المادية الطبية أو الفسيولوچية أو البيولوچية ليست إلَّا رَدَّ فِعلٍ سلبيٍّ في وجه الروحية؛ نفيٌ هو نظيرٌ تامٌّ لتأكيدات الروحية: لقد صبَّت الماديَّةُ القديمةَ في قالَبِ الرُّوحيَّة، فهي تقبل الأسلوب الذي تستخدمه الرُّوحيَّةُ في تحديد موضوع السيكولوچيا، وتثير نفس القضايا، وهي -ببساطةٍ- تُسمِّي "مادَّةً" كُلَّ ما كانت الرُّوحيَّة تَسمِّيه "روحًا"، كما لو كانت ثلَّاجة كهربائية تحتفظ بالروحية. وجوهر المسألة هنا أن "الروحي" Le spirituel وكل التنظيم المدرسي للرُّوح l'âme أشياءُ يُؤخَذُ بها بوصفها مَهمَّة ملزمة -على أي حال- بشيء ما، قد لا يعدو إلغاءً، مع وضع لَوحَةٍ تَذكاريَّةٍ في الجهاز العصبي لهذا الذي أُلْغِيَ. ومن ثَمَّ ظَلَّت السيكولوچيا أَسيرةً هذه المعارضة، التي لم تنجح حتى اليوم في الخروج منها؛ لأنها اكتفت بالبحث عن صورة الأطروحة في نقيض الأطروحة، وهذا المنهج غير جَدَليٍّ، فالتَّعارُض هنا بين المادة (الروحية) والمادة (الفيزيائية)، وأمَّا أشكال التفكير المستخدَمَة في كلٍّ من الحالتين -وكذلك الأهداف- فلا تزال مُشتَرَكَةً بينهما؛ فليس لدى الروحانيين والماديِّين القُدماءِ سوى خطة معركةٍ مُشتَرَكَةٍ، ووحيدة؛ لأن كُلًّا منهما يستخدم نفس العتاد الشكلي.

ولكي يتمَّ إصلاح السيكولوچيا حقًّا كان يتعيَّن بالذات مهاجَمَةُ هذا العَتادِ الشَّكليِّ، وتدمير خُطَّةِ المعركة السابِقِ ذِكرُها. وكان ينبغي أن يوجد نَقدٌ للشكل يصيب كُلَّ هذا التأكيد والنفي في صميمه، بدلًا من النقد الأخير، والذي اكتفى بإحلال النفي مَحلَّ التأكيد، والعكس بالعكس. كان علينا ببساطة أن نتناول نظامَ الرُّوح كمذهَبٍ، وأن نفحص تركيبَه قبل أن نندفع في أي ترجمة حرفية أو ما يُشبِهُها. وهذا بالضَّبط ما نويناه، ولمَّا كان مثل هذا النوع من النَّقد لا يوجد تقريبًا؛ لهذا ينبغي لنا أن نبتكر جهازًا تكتيكيًّا خاصًّا نرى أنه ضروريٌّ حتى يظهر في الأفق شيء جديد.

وبهذا نكون قد توصَّلنا إلى ثلاثة أشياء:

1. أن الروحيـة تعمـل بشـكل منتظـم بواسـطة عَـدَدٍ مـن الإجـراءات الذِّهنيَّـة المُسـتَخدَمَة في اختـلاف ظواهـر الـروح.
2. أن هـذه الإجراءات الذهنيـة ليسـت أشـكالًا لا غِنـى عنهـا للفكـر في أي تصوُّرٍ للواقـع تتناولـه السـيكولوچيا، ولكنهـا تخـدم أهـدافَ التَّحـوُّل المُسـتَوحاة مـن مصالِحَ لا عَلاقَـةَ لهـا بتاتًـا بالعلـم، ولا باحتياجـات الـشرح والتوضيـح عمومًـا.
3. أننـا لـن نتغلَّـب عـلى الروحيـة عـن طريـق التَّرجمـة الحرفيـة، ولكـن بإزالـة الإجـراءات الذهنيـة التـي تـؤدِّي إليهـا.

وبعبـارة أخـرى، فإنـه يتَّضِـحُ لنـا بفضـل هـذا النقـد الشَّـكليِّ، يتَّضـح بِـكلِّ دِقَّـةٍ، وفي بعـض الأحيـان بِدقَّـةٍ مُتناهيـة- أن السـيكولوچيا الكلاسـيكية هـي أسـطورةٌ مُتميِّـزة بمعنـى الكلمـة، ويتَّضِـحُ لنـا أيضًـا في نفـس الوقـت أن الوضـع الابتـدائي للماديـة القديمـة خاطـئٌ كذلـك؛ فمـن العبـث إذًا أن نحـاول تحويـلَ الأسـطورة إلى شيءٍ مـادِّيٍّ لـكي نقـضي عليهـا في النهايـة باسـم العِلْـمِ، في حـين أنهـا تفقـد كُلَّ ميـزة عِلميَّـةٍ متـى أوضحنـا طابعهـا الأسـطوري. إلا أنـه كان ينبغـي أن يكـون هـذا التوضيـح حقيقيًّـا، كان ينبغـي وصـف وتعيـين الإجـراءات الذهنيـة التـي تَكلَّمنـا عنهـا. ولمَّـا كان طابعهـا الأسـاسي يَكْمُـنُ في ظاهِـرِهِ أن كُلَّ مـا هـو إنسـانيٌّ عبـارة عـن تجريـدٍ مُنظَّـمٍ للأحـداث الإنسـانية، فَلِـكَيْ نسـتطيع اختزالهـا إلى عمليـاتٍ فقـد جَمَعنـا كلَّ هـذه الإجـراءات تحـت اسـم عـامٍّ، هـو: "التجريـد". ويتَّضِـحُ مـن ذلـك أننـا لا نقصـد هنـا فقـط تلـك العمليـة المبدئيـة التـي يُسـمِّيها المنطـقُ الكلاسـيكيُّ بــ "التَّجريـد". وقـد الْتَبَـسَ عـلى البعـض نَقْدُنـا للتَّجريـد السيكولوچـي بنقـدِ التَّجريـد المنطقـي؛ لذلـك اعتقـد البعـض أنهـم واجهونـا بِحُجَّـةٍ دامِغَـةٍ عندمـا قالـوا إنـه لا يمكـن وجـودُ عِلْـمٍ دون تجريـدٍ، وأن السـيكولوچيا العَيانِيَّـة يجـب أن تسـتخدم التجريـد هـي أيضًـا، وإلَّا تَخَلَّـت عـن كَوْنِهـا عِلـمًا، وأصبحـت -بالتـالي- خاطِئَـةً في جوهرهـا. غـير أن هـذا خَلْـطٌ مقصـودٌ ومُغْـرِضٌ، فنحـن نتكلَّـم عـن نـوعٍ مُعيَّـنٍ مـن التجريـد عرفنـاه، فنقدنـا للتجريـد لـيس شـكليًّا في عمومـه، ولكنـه شـكليٌّ بالنسـبة لعلـم النفـس، أمَّـا مـن حيـث المنطـق عامَّـةً فقـد سـبق أن حَدَّدنـا أننـا نقصـد التجريـد الـذي لا يتنـاول إلَّا العمليـات الذهنيـة، حيـث الأمـر أمـرُ بَـشَرٍ، يعيشـون، ويعملـون. ذلـك التجريـد الـذي عندمـا يُواجِـهُ واقعًـا، يَهجُر

-باسم ضرورة التعبير عن نَفسِه- عَيْنَ اللَّحظةِ المُكوِّنة لذلك الواقع. وهكذا، فإنَّ الاعتراض الذي نتكلَّم عنه لا يستطيع أن يصيبنا إلَّا إذا كُنَّا نقصد بالسيكولوچيا العَيانِيَّة نوعًا من الهَوَسِ "بالمباشر"، وإلَّا إذا كان طموحنا قاصِرًا على الاشتراك في الجَدَلِ العاطفي والمنافق ضِدَّ "المفاهيم" بشكلٍ عام. ولكن السيكولوچيا العَيانِيَّة ليست رومانتيكيَّةً جديدةً، وإنَّما هي عَدُوَّةٌ للتَّجريد، حسب ما سبق أن عرفناه، وعَدُوَّةٌ أيضًا للمفاهيم الأسطورية للسيكولوچيا الروحية.

وحينما عَرَّفنا السيكولوچية التجريدية بأنها السيكولوچيا النَّاشِئَة عن لاهوت الروح، وحينما واجهنا اختصامًا بالسيكولوچيا العَيانيَّة؛ فإننا لم نَعْدُ أَنْ قُمْنَا بصياغة نتائج النقد الذي وَجَّهناه حسب منهجنا؛ إذ إن هذا النقد لم يَكُنْ مُوَجَّهًا للقضايا، بل لبنائها، وهذا هو السبب في أنه لم يَقْصِدْ مُخاصَمَةَ القضايا التي يُدافِعُ عنها طَرَفَا المُخاصَمة، بل الأوضاع التي وَلَّدَت تلك القضايا. فالتَّعارُضُ بين السيكولوچيا الروحية والمادية على النحو الذي فُهِمَ به هذا التَّعارُضِ حتى الآن يَدُلُّ على وجود تناقُشٍ حول مجموعة من المسائل الكلاسيكية، أمَّا التعارُض بين السيكولوچيا العَيانيَّة والمُجرَّدة فيدلُّ على اللحظة الحاسِمَةِ في المعركة، وعلى النُّقطة المُحدَّدة التي يجب أن يستند إليها كلُّ هجومنا على الروحية، مهما كانت، وكيف نتخلَّص منها.

فالسيكولوچيا العَيانِيَّة والسيكولوچيا المادِّيَّة مترادفتان، مثلهما في ذلك مثل تَرادُفِ السيكولوچيا العَيانيَّة والسيكولوچيا الوضعية. وهدفنا هو استردادُ وَصْفَيْ "الوضعية" و"المادية" من كُلِّ هذه السيكولوچيا التي أفسَدَتها بأن تَحلَّت بهما فقط، واكتفت في نهاية الأمر بأن تَحلُّمَ بالمادِّيَّة والوضعية، وهي لا زالت في إطار الروحية والميثولوجية. لقد أردنا أن نُبيِّن السبيلَ المؤدِّي -حقيقةً- إلى تَمَلُّكٍ شَرعيٍّ لهاتَيْن الصِّفَتَيْن.

-4-

لقـد كان غَرَضُنـا حتـى الآن هـو أن نُحـدِّد طابعَ مشروعنـا بـأن نتخطَّـى التخطيـطَ التكنيـكيَّ البحـث الـذي سِرْنـا عليـه في البـاب الأول لِنُبَـيِّن أنَّ نقدنـا للتجريـد وحملتنـا مـن أجـل السـيكولوچيا العَيانِيَّـة يرتبطـان -أو بالأحـرى يُريـدان أن يرتبطـا- بالحركـة المادية. فـكان علينـا أن نُقـدِّم هـذا التوضيـحَ الإضـافي، فيـما أنَّنـا لم نتكلـم إلَّا عـن التَّناقُـضِ القائـم بـين المجـرَّد والعَيـانيِّ، ولم نُـشِرْ بوضـوح إلى الـدور الوظيفـي لفكـرة الدرامـا؛ فقـد يَظُـنُّ البعـضُ أنَّ الاتجـاه الإيديولوچـي للسـيكولوچيا العيانيـة يـكاد أن يكـون غـيرَ مُحـدَّدٍ. والصِّيَـغ التـي اسـتخدمناها حتـى الآن تعطـي للموضـوع دِقَّـةً، ولكنهـا في حَـدِّ ذاتهـا لا تسـتطيع أن تُلْـزِمَ إلَّا الذيـن تُحرِّكُهـم مَقاصِـدُ تكتيكيَّـةٌ مُخلِصَةٌ، عـلى حـين أنهـا تسـمح للباقـين مـن سِرْبِ الغربـان، الذيـن مـا إن تظهـر فكـرةٌ أو مُحاوَلَةٌ حتـى يَحومـوا حَولَهـا، ويعبثـوا بهـا؛ لذلـك سـاد الاعتقـادُ أنَّنـا نريـد بنـاءَ نظـامٍ فلسـفيٍّ "جديـد" يقـوم عـلى فكـرة السـيكولوچيا العَيانِيَّـة، "نظـام جديـد" يأملـون طبعًـا أن يكـون شـكلًا مـن أشـكال المثاليـة، ولكننـا الآن، بعـد أن تَكلَّمنـا عـن الطريقـة التـي تدخـل بهـا السـيكولوچيا العَيانِيَّـة في دائـرَةِ نُفـوذ الماديـة، وعلينـا أن نُضيـفَ "إننـا نقصـد الشـكل الحديـث مـن الماديـة"- تبخَّـر في الهـواءِ عَـدَمُ التَّحديـدِ الَّـذي كانـت المِثالِيَّـةُ تَعْقِـدُ عليـه الآمـال، والـذي إذا مـا ظهـر في محاوَلَـةٍ علميَّـةٍ كان ذلـك دليـلًا عـلى وقوعهـا في الخَلْـطِ والكِتابَـةِ الأدبيـة. وسـيخيب رجـاءُ البعـض، وسـيقول الكثـيرون إن السـيكولوچيا العَيانِيَّـة ليسـت بالأهميَّـة التـي بَـدَت بهـا أوَّلُ الأمـر، والحقيقـة أن السـيكولوچيا العيانيـة جـاءت بـشيء مُلْفِـتٍ مـن التجديـد في وقـتٍ وفي بَلَـدٍ كان -ولا شَـكَّ- في انتظـار تجديـداتٍ مُمتِعَـةٍ في المجـال الفلسـفي السيكولوچـي، يفتتـح بهـا الموسـمَ الفلسـفيَّ القـادم؛ لأنـه، رغـم التهليـلات الرسـمية لـ "برچسـون"، والحفـاوة بـه بمُناسَبَةِ حصولـه عـلى جائـزة نوبـل- فقـد سَـئِمَه النَّـاسُ في فرنسـا. وكل الضوضـاء التـي حدثـت أخـيرًا لا تَـدُلُّ إلَّا عـلى أنـه في طريقـه إلى أن يوضَـعَ في المتحـف القومـي. فمـن المقطـوع بـه أنَّـه لم يَعُـدْ يجتـذب جمهـورَ الأدبـاء ولا الفلاسـفة الذيـن يُغازِلونـه حتـى يَشـقُّوا طريقهـم إلى مُقدِّمَـة الصفـوف. فـ "البرچسـونية" تفـوح منهـا رائِحَـةُ السـهرات الفرنسـية فيـما قبـل الحـرب، بينـما أصبحـت "الموجـة" الآن "للبـارات" الأمريكيـة. ثـم إن التحليـل النفسـي أثبـتَ للجمهـور أنـه مـن المُمكِـنِ أن يتحمَّـس النـاسُ في علـم

النفس لأشياءَ أخرى غير "حلوى" الحَدَثِ، و"لبان" الدَّيمومَة durée. ففَضَّل النَّاسُ عُقدَةَ "أوديب"، والرحلةَ داخِلَ السَّائِلِ الرَّحِميِّ (الأمينوتي) على الخرافات الهَزِيلَةِ، مثل: "الأنا الذي يتمدَّد". ويزداد اهتمامُ الناس بفكرةٍ أن سلوكهم تُحدِّدُه عُقَدٌ رومانتيكيَّةٌ أكثرَ من اهتمامهم بفكرة "ضرورات الحركة" التي لا طَعْمَ لها.[1]

وتضخَّمَت الحساسيةُ، وأصبح غَرَقُ الفروق الدقيقة للمعاني في مصطلحات اللغة قصصًا تَصلحُ للخِصيان، ولا يمكن مقارنتها بالملاحم الباهِرَةِ للعُقَد. وهكذا، فقد كان من المُرجَّح أن يُرحِّبَ "بكوكتيل" فلسفيٍّ مُعَدٍّ بواسطة التحليل النفسي، وبكل ما جاءت به السيكولوچيا المعاصِرَةُ من نوادِرَ. ولقد هَلَّلَت البقراتُ السِّمانُ الَّتي "لا ترتوي أبدًا من الفكر والقلم" في انتظار هذا العَلَفِ الجديد. وكادت السيكولوچيا العيانيَّةُ تنتهي إلى هذه النهاية التافهة. وعَبَّر البعضُ -إثرَ بعض تصريحاتنا ومواقفنا- عن رأيٍ مُؤدَّاه أننا نريد أن نسير في ركاب "ذَوْقِ العصر"؛ لأننا لا نقنع بالمزايا التي تعود علينا من عدم الالتزام المريح. وهكذا، يأسفون؛ لأن علم النفس العياني (وهو النَّجمُ اللامِعُ في سماء الفلسفة الأدبية) يتردَّى في تفاهة المغامَرَةِ السياسية؛ فهم يعتبرون الاتجاه المادي للسيكولوچيا العَيانِيَّة نوعًا من السياسة. وسيقول البعض إن علم النفس العَيانيَّ لن يفلت هو أيضًا من القانون المشترك بين كل العقائد "الذي يُلزِمُها بوضع نفسها تحت حماية سُلطَةٍ مادِّيَّة، سواءً كانت الكنيسة أو حزبًا سياسيًّا". وسيقول البعض الآخر: "من المؤسف حَقًّا أنكم تُضحُّون بما تَعِدُ به إمكانياتُ حركةٍ شابَّةٍ وفَتِيَّةٍ من أجل التنفيذ الآلي لبرنامج محدود الأُفُق"[2].

وهذا كلُّه ليس إلَّا سحابات صيف. غير أن هناك نِقاطًا من المفيد شَرْحُها. سيتساءل البعضُ: هل السيكولوچيا العيانية ذات اتجاه ماديٍّ؟ حسنًا، ولكن ما علاقة هذا بالسيكولوچيا العِلميَّة أو بعلم النفس بصفة عامة؟ تقولون من ناحية إن السيكولوچيا العيانية والسيكولوچيا الوضعية مُترادِفَتان، وهذا يمكن فَهْمُه،

(1) "الحَدْسُ" و"الدَّيمومة" و"الأنا الذي يتمدَّد" و"ضرورات الحركة" من المعاني البرچسونية الذائعة، التي كانت تلوكها الألْسُنُ "تَفَلْسُفًا".

(2) لعلَّ هذا ما قصده السيد "لالاند" عندما قال مُشيرًا إلى فقرة من كتابنا "نقد أسس علم النفس": "يُؤسِفُني أن أجد أحدَ تلاميذي السابقين، وهو حامِلٌ على الآجرجاسيون في الفلسفة، ينظر بِجديَّةٍ لهذه الفلسفة الخاصَّة بالاجتماعات الجماهيرية". (المؤلف).

ولكنَّكـم تؤكِّـدون مـن جهـة أخـرى أن تعبـيرَيْ "سـيكولوچيا عيانيـة" و"سـيكولويجيا مادِّيَّـة" متكافئـان. أي أن السـيكولوچيا الوضعيـة لا بُـدَّ وأن تكـون مادِّيَّـةً، وهـذا غـير مقبـول؛ لأنـه لا يعـدو أن يكـون مَوقِفًـا مُسـبَقًا وانحيـازًا مُتعسِّـفًا... إلـخ. "وسـتتوقَّف المسـألة دائمًـا عـلى مـزاج علـماء النفـس، كل منهـم عـلى حِـدَة"، كـما قـال لنـا -أخـيرًا- أحَـدُ علـماء النفـس الألمـان المرموقـين. والواقـع أنهـم يريـدون أن يعتمـدوا عـلى أحـد الحَلَّـيْن الآتِيَـيْن في رَدِّهـم علينـا: إمَّـا أن تكـون السـيكولوچيا العيانيـة وَضعيَّـةً دون أن تكـون مادِّيَّـة، وإمَّـا أن تكـون مادِّيَّـةً دون أن تكـون وضعيَّـة. ولمَّـا كانـت الوضعيـة مسـألةً "عامَّـةً" فـإن طابعهـا العـام هـذا سـيجعل المادِّيَّـةَ أيضًـا ضرورةً عامَّـةً، بينـما المطلـوبُ جَعْلُهـا مسـألةً خاصَّـةً مُتعلِّقَـةً بمحاولـة فرديـة. ولكـن الأمـر ليـس بهـذه البسـاطة؛ فهـذا العلـم "الروحـي تمامًـا" الـذي يأملـون -بعـد مـا لحقهـم مـن فشـل- أن يُثبِتـوا قبـل نهايـة الشـوط أنـه مـن "علـوم الـروح"[1]، مُسـاقٌ إلى الماديـة بحكـم أنـه وضعـي، والمجـال الوحيـد المتـاح لـه لـكي يتَّخِـذَ خَـطَّ التَّطـوُّر الطبيعـي الـذي سَـلَكَته كلُّ العلـوم هـو مجـال الماديـة بالـذات.

وإذا كانـت الوضعيـة تتَّجِـهُ بالسـيكولوچيا بالـضرورة نحـو الماديـة؛ فـإن هـذا يرجـع بشـكل مبـاشر إلى كـون الـشرط الأول لوضعيـة السـيكولوچيا يتَّفِـقُ تمامًـا مـع الهـدف الأسـاسي للجهـود الماديـة في السـيكولوچيا، فقـد اتَّجَهـت الماديـة دائمًـا في مجـال السـيكولوچيا نحـو سـيكولوچيا بـلا "حيـاة داخليـة"، فـكان يتعـيَّن عليهـا -بنـاءً عـلى ذلـك- إلغـاء "الظواهـر" الروحيـة بشـكل أو بآخـر. ومـع أننـا لسـنا هنـا بِصَـدَدِ إلغـاء الجانـب الروحـي لصالـح المـادَّة "الفيزيقيـة"، إلَّا أن إثبـات الطابـع الأسـطوري "للحيـاة الداخليـة" يُمثِّـلُ بالفعـل خاتمـةَ هـذه الجهـود. وعندئـذ لا نصبـح بِصَـدَدِ "مـزاج"؛ فبمجـرَّد أن نُثبِـتَ أن الحيـاةَ الداخليـة "خرافـة" نسـتطيع أن نكتشـف تكوينهـا التدريجـيَّ وأسـاليب تغذيتهـا، وعندئـذ فإنهـا لا تعـود مسـألةً تَهـمُّ العِلـمَ؛ لأن العلـم الوضعـي يهتـمُّ بالواقـع، لا بِتحَوُّلِـه الأسـطوري. ويمكننـا أن نقـول إن الماديـة اسـتطاعت حتـى في أكـثر أشـكالها سَـذاجَةً أن تتبـيَّن مـن خـلال تعريفهـا للظاهـرة السـيكولوچية الخطـوةَ الأولى التـي كان يتعـيَّن اجتيازهـا قبـل أن تتمكَّـن السـيكولوچيا الوضعيـة مـن إنجـاز أي شيء.

---

(1) انظر في ألمانيا: "سبرانجلر" وتفرُّعاته. (المؤلف).

ومـا هـو إذًا مصـير الاتجـاه المـادي في نقـد الحيـاة الداخليـة، ومـا هـي الروابـط الوضعيـة التـي تربـط السـيكولوچيا -غـير المعترفـة بالحيـاة الداخليـة- بالماديـة؟ سـتتيح لنـا الإجابـة عـلى هـذا السـؤال إمكانيَّـةَ اسـتخلاص الشـكل الأخـير للمعارضـة التـي عبَّرنـا عنهـا في اصطلاحتنـا الفنيـة بالثنـائي "مجـرَّد- عَيـانِي"، وهـذه المعارضـة صـادِرَةٌ مـن جانـب السـيكولوچيا المثاليَّـة مـن جِهَـةٍ، ومـن جانـبِ السـيكولوچيا المادِّيَّـة مـن جهـةٍ أخـرى.



-5-

تَـردَّد الـكلام كثـيراً في الآونـة الأخـيرة عـن الاتجـاه الإيديولوچـي للسـيكولوجيا، فقـد اتَّضَـحَ إفـلاس السـيكولوچيا ذات الصبغـة الفسـيولوچية- البيولوچيـة- التجريبيـة؛ ولـذا أُثـيرَ سـؤالٌ فَحـواه: مـا هـو نـوع الإطـارات النظريـة والمَعـارِفِ التـي يتطلَّبهـا البحـثُ السيكولوچـي؟

ولا يمكــن -بالطَّبــع- أن نــترك مســألةَ الاتجــاه الإيديولوچــي للســيكولوچيا نَهْبًــا لمُصادَفـاتِ الاسـتلهام، كـما لا يمكن تسـليمُه ببسـاطةٍ لمختلف المحاولات المثاليـة الحالية. فـلا بُـدَّ مـن تحديـدٍ للاتجـاه أكـثرَ جِدِّيَّـةً. ومـن الجَـلِيِّ أن مثـل هـذا التحديـد يبـدأ حتـمًا مـن طبيعـة الظواهـر التـي تُعنَـى بهـا السـيكولوچيا. ويتفـق وضـع السـيكولوچيا -مـن وجهـة النظـر هـذه- مـع وضـع كلِّ العلـوم الأخـرى. فتتَّجـه الفسـيولوچيا اتِّجاهًـا فيزيائيًّـا- كيميائيًّـا؛ لأن معرفـة الظاهـرة الفسـيولوچية تحتـاج إلى الفيزيـاء والكيميـاء، بَيْـدَ أنَّ تحليـل الظاهـرة الفسـيولوچية نفسـها هـو الـذي يبـيِّن هـذه العلاقـةَ العامَّـة، كـما يبـيِّن المعـارف الفيزيائيـة والكيميائيـة الخاصَّـة التـي تتدخَّـل في كُلِّ حالَـةٍ.

وينطبـق هـذا الأمـر عـلى السـيكولوچيا أيضًـا، غـير أننـا نحتـاج هنـا إلى مفهـومٍ واضـحٍ تمامًـا للظاهـرة السـيكولوچية، واضـحٍ تمامًـا ووَضْعِـيٍّ تمامًـا، ولا يمكـن أن تلتـزم السـيكولوچيا الوضعيَّـةُ بتحديـدٍ لاتجاهاتهـا تَنطَلِـقُ مـن تَصـوُّرٍ غامِـضٍ أو أسـطوريٍّ للظاهـرة السـيكولوچية.

يقوم موضوع السيكولوچيا على مجموع الظواهر الإنسانية من حيث علاقتها بالفرد الإنساني، أي بِوَصْفِها مُكوِّنات حياةِ الإنسان وحياة الناس، فالزواج -مَثَلًا- ليس ظاهرةً سيكولوچية إلا بوصفه زواجًا، أي عند إتمامه في ظروف مُعيَّنَة من جانب أفراد بذاتهم. غير أن الأحداث الإنسانية في حَدِّ ذاتها لها تركيبها، وهي تخضع لحتميَّةٍ يَجِبُ أن يُدْرِكَها العالِمُ النَّفسيُّ لكي يتمكَّن بعد ذلك من النظر إلى نفس الأحداث في علاقتها بالفرد، وعليه أن يبحث عن هذه المعرفة حيثما توجد بالفعل.

لنضرب المَثَلَ بالعمل؛ فالعمل ليس ظاهرةً سيكولوچية إلَّا في علاقته بالفرد، وإلَّا أصبح ظاهرةً اقتصاديَّةً فقط، ولا يمكن أن تقوم سيكولوچيا العمل إلَّا على أساس معرفة صحيحةٍ بالعمل بصفة عامَّة، وبطبيعته الاقتصادية، ودوره، ومكانته في التنظيم الاجتماعي القائم. ولكن أين توجد هذه المعرفة؟ لا جدوى من القيام هنا بأبحاث مُعقَّدة فالمعرفة المطلوبة متوفِّرة لدى رجال الاقتصاد، وبالذات لدى رجال الاقتصاد الذين يدرسون الأحداثَ الاقتصادية بالفعل، دون أن يكون هَمُّهم تبريرَ النظام الاقتصادي القائم، أو التَّستُّر عليه، أي أنها تتوفَّر إذًا في الاقتصاد الماركسي. وقد أثبت السيكوتكنيك أن سيكولوچيا العمل مستحيلةٌ بدون الأُسُسِ التي يُقدِّمها لها الاقتصاد الماركسي[1]. فإذا كانت مُجرَّدَ الاكتفاء بإنجاز التكليفات الصادرة من المؤسَّسات الصناعية الكبيرة والإدارات العليا؛ فإنَّ كل شيء يكون على ما يُرام تقريبًا. أمَّا عندما نصبح بِصَدَدِ استخلاص التعاليم السيكولوچية الصِّرف من كافَّة أوجه نشاط القياس السيكولوچي، أو عندما نكون بِصَدَدِ الارتفاع إلى مستوى الإيضاح والتنظيم النظريَّيْن systematization، وللخروج من فوضى الأساليب والمناهج- فإنَّ المُشتَغِلين بالقياس السيكولوچي يَتَرَدَّوْن في أحلام مثالية. ومع ذلك، فإن الأُسُسَ النظرية الضرورية للقياس السيكولوچي جاهِزَةٌ بالفعل، ومُدعَّمَة بالأبحاث المادِّيَّة الماركسية، إلا أن المشتغلين بالقياس السيكولوچي يحلمون بسيكولوچيا حضاريَّةٍ مُبهَمَةٍ غامِضَةٍ مثاليَّة، نبعت فكرتها لديهم من

(1) هذا ليس صحيحًا. وفي العبارات التالية ينفي المؤلِّف ما أعلَنَه في هذه العبارة، ثم يُعدِّله بوضوح في صفحة 111 عندما يقول: "نحن لا نريد أن نقول إن دور السيكولوجيا عبارة عن البحث عن التحديد الاقتصادي خلف الظواهر السيكولوچية؛ فنحن نقول -فقط- إن التحليل الكامل للظواهر السيكولوچية الفعالة يكشف عن هذا التحديد..." إلخ الفقرة.

ظـروف نشـأة القيـاس السيكولوچـي، لا مـن خـلال تحليـل الظَّواهـر نفسـها، بالرَّغـم مـن اعترافهـم بـضرورة المسـاهمة مـن جانـب فلسـفة الحيـاة **Weltanchaunung**، وهـذا أمـرٌ لـه مَغْـزًى في حَـدِّ ذاتـه.

وينطبـق مـا قلنـاه عـلى العمـل عـلى الجريمـة أيضًـا؛ فالجريمـة لا تكـون ظاهِـرَةً سيكولوچيَّةً إلَّا بوصفهـا أحـد المشـاهد الفعليـة في الحيـاة البشريـة، لأن الـذي يرتكبهـا فعـلا فـرد أو مجموعـة مـن الأفـراد. غـير أن ارتـكاب الجريمـة فِعـلًا مـن جانـب فَـردٍ مُعيَّنٍ أو مجموعـةٍ مـن الأفـراد ليـس كُلَّ مـا في الجريمـة، وبنـاء عليـه؛ يجـب أن يكـون السيكولوچـيُّ عـلى معرفـةٍ صحيحَـةٍ بالجريمـة، بِغَـضِّ النظـر عـن وقوعهـا الفِعـليِّ. أيـن توجـد هـذه المعرفـة؟ سـيقوده تحليـل الجريمـة (وهـي حَـدَثٌ اقتصـاديٌّ اجتماعـيٌّ[1]) مـرَّة أخـرى إلى الاقتصـاد الماركـسي، وبالتـالي إلى الماديـة الجدليَّـة، التـي لا غِنَـى عنهـا في عملـه الخـاص، ويمكننـا أن نقـدِّم إثباتًـا بَسـيطًا عـلى ذلـك: لا يمكننـا أن نفهـم الجريمـة -شـأنها شـأن أي ظاهـرة سـيكولوچية- إلَّا عـن طريـق مفهـومٍ دقيـق لـدور السـيكولوچيا، أي بتحديـدٍ مضبـوطٍ للحتميَّـة الفرديَّـة للجريمـة، ولا يُمكِنُنـا أن نتوصَّـل إلى هــذا التحديـد إلَّا بمعرفـة التحديـد الاقتصـادي للجريمــة، وبــدون ذلــك تكـون السـيكولوچيا قـد تعـدَّت مجالهـا، وبتعدِّيهـا لمجالهـا تكـون قـد تعـدَّت أيضًـا الظواهـرَ السـيكولوچيَّةَ البحـت[2]. وهكـذا، فإنهـا لا تعـود تسـتند إلى الواقـع وتُصبِـحُ أسـطوريَّةً؛ لأنهـا مُلزَمَــةٌ بتقديـم روايــة سـيكولوچيَّةٍ، حيـث يجـب أن تصمـتَ السـيكولوچيا وتـترك الكلمـة للاقتصـاد. بعبـارة أخـرى، لا يمكــن أن توجـد نظريَّــةٌ سـيكولوچية إلَّا في نطـاق النظريـة الاقتصاديـة للجريمـة، فلـن يمكننـا الحديـث عـن مسـألة الميكانيـزم السيكولوچــي للجريمـة إلَّا داخـل إطـار الميكانيـزم الاقتصـادي للجريمـة، وعندمـا يكـون الأمـرُ أَمْـرَ إدراجِ الفـرد داخِـلَ هـذا الميكانيـزم، وتفسـير دخولـه هـذا.

ويمكننــا أن نطبِّــق مــا قلنــاه عــن العمــل وعــن الجريمــة عــلى كل الظواهــر السـيكولوچية؛ فهـذه الظواهـر ليسـت في الواقـع إلَّا ظواهِـرَ إنسـانيَّةً، مـن حيـث أنهـا تتعلَّـق بالفـرد. تتطلَّـب السـيكولوچيا -إذًا- معرفـة الحـدود الخاصَّـة بالظواهـر الإنسـانية، بمـا هـي كذلـك، وبمـا هـي مُسـتقلَّة عـن الفـرد. وهـذه المعرفـة ضروريـة لـكي يصبـح مـن

(1) يعـرف كُلُّ مُشـتَغِلٍ بعلـم النفـس أن تعريـف الجريمـة بأنهـا حـدث اقتصـاديٌّ اجتماعـيٌّ تعريـفٌ تعسُّـفيٌّ كـما يقـوم الدليـل عـلى ذلـك في سـيكولوجية الجنـاح، وسـيكولوجية جنـون السرقـة cleptomania؛ مَثَـلًا.
(2) هذا تناقُضٌ في الحَدِّ contradictis in adjecto، يقوم عليه الدليلُ الصريح في العبارات التالية.

الممكـن تحديـدُ مجـال السـيكولوچيا، وطـرح المسـائل، بشـكل صحيـحٍ، وكذلـك للمعرفة التفصيليـة باتجـاه وحُـدودِ ومـدى الأبحـاث والاعتبـارات السـيكولوچية. بعبـارة أخرى، فـإن السـيكولوچيا -بأسْرِهـا- لا تتحقَّـق إلَّا في إطـار الاقتصـاد. ولـذا؛ فهـي تفـترض توفُّـرَ حصيلَـةٍ مـن المعـارف النابعـة مـن الماديَّـة الجَدليَّـة، عـلى أن تعتمـد عليهـا دائمًـا. وتُمثِّـل الماديـة بالفعـل القاعِـدَة الإيديولوچـية الحقيقيـة للسـيكولوچيا الوضعيَّـة.

ويجـب ألَّا نظـنَّ أن النتائـج المترتِّبـة عـلى مثـل هـذا الاتجـاه للسـيكولوچيا تَخُـصُّ العـادات البورجوازيـة للسـيكولوچيِّين والسـيكولوچيا فقـط، أي القصـور وأُحادِيَّـةَ الجانـب الناتِجَـيْن مـن كَـوْنِ السـيكولوچيا الكلاسـيكية نظامًـا نابِعًـا مـن مصالـح الطبقة المسيطِرة ويرعاهـا خُدَّامُهـا؛ فهـذا ليـس في الواقـع سـوى جانِـبٍ واحـدٍ مـن المسـألة، فمـن المؤكَّـد أن تَـدرُّجَ المشـاكل السـيكولوچية في الأهميـة والآفـاق الحاليـة للأبحـاث واتجاههـا وأسـلوب إجرائهـا مَحـدودٌ -بدرجـة أو بأخـرى- بالمصالـح الطبقيـة. وهكـذا، ظَلَّـت قضايـا السـيكولوچيا حتـى يَومِنـا هـذا مُجـرَّدَ إسـقاطٍ للقِيَـمِ البورجوازيـة، ومـا الاسـتبطان إلَّا "التحويـل العلـماني" للتَّأمُّـلات المَسـيحيَّة، كـما يقـوم عِلـمُ نَفـس الطِّفـل عـلى أسـاس أنـه لا يوجـد في العـالم إلَّا أطفـالُ البورجوازيـة[1]. ومـع أن السـيكولوچيا حاوَلَـت أن "تُـثري" نفسـها بالمنهـج المقـارن، إلَّا أن تطبيقـات هـذا المنهج تتعلَّـق بقضايا وظيفيَّـةٍ أساسًـا تَجْهَـلُ في الواقـع كلَّ مـا قـد يترتَّـب عـلى العَـداءِ بـين الطبقـات مـن وجهـة نظـر السـيكولوچيا التـي تميـل بشـكلٍ ملحـوظٍ إلى التحليـق فـوق هـذا العـداء، ومـن الواضـح أيضًـا أن العمـل لم يتحـوَّل إلى مشـكلةٍ سَـيكولوچيَّةٍ إلَّا عندمـا أصبـح الإنتـاجُ الرأسـماليُّ في حاجـة إلى اسـتغلالٍ رشـيدٍ للفـرد، فراحَـت السـيكولوچيا تُكمـلُ في نطـاق السـيكوتكنيك المَهمَّـةَ التـي اضطلَعَـت بهـا دائمًـا، فبعـد أن حَوَّلَـت السـيكولوچيا المُعتَقـداتِ التـي كانـت ضروريَّـةً لاسـتعباد الجماهـير إلى "طبيعـة" مُزيَّفـة؛ راحَـت تكتشـف الوسـائِلَ التـي تُمكِّنهـا مـن اسـتعباد الإنسـان تمامًـا في الإنتـاج[2].

---

(1) يجـب أن نلفـت النظـر هنـا إلى أن علـم نفـس الطفـل بـدأ بملاحظـة السـيكولوجيين أنفسـهم لأطفالهـم، أي ملاحظـات يقـوم بهـا بورجوازيُّـون بالِغـون عـلى أطفـالٍ بورجوازيِّـين. وعندمـا أُجريَـت دراسـاتٌ عامَّـةٌ عـلى الأطفـال أثـيرت قضايـا مجـرَّدة ليسـت عـلى درجـة كافيـة مـن الدِّقَّـة بحيـث تأخـذ في الاعتبـار الفـروقَ الطَّبقيَّـةَ واختـلاف الأوضـاع الاقتصاديـة. (المؤلـف).

(2) يجـب أن نقـول إن أهـداف السـيكوتكنيك تغـيَّرَت اليـوم في بعـض المجـالات عـلى الأقـل. وقـد تحقَّـق هـذا تحـت تأثـير عامِلَـيْن، أوَّلهـما: قيـام أفـراد مـن البروليتاريـا عـن طريـق الاتحـادات النقابيـة ببعـض الأبحـاث السـيكوتكنيكية، لا مـن أجـل "إخضـاع الإنسـان للإنتـاج"، ولكـن مـن أجـل إرشـاده إلى أحسـن طُـرقِ تحقيقـه.

وسنشاهد بالطَّبع في كل هذه المسائل تغيُّراتٍ وتعديلاتٍ في وجهات النظر ناتجة بالضرورة عن تحرُّر البحوث العلمية من الأغراض غير العلميَّة، ولكننا لا نريد أن نتعرَّض لهذه التغيُّرات بل للطريقة التي تجعل السيكولوچيا نفسها داخله ضمن الحتميَّة الاقتصادية للظواهر الإنسانية، وعلى أساس هذه النقطة سنتمكَّن من أن نفهم لماذا كانت السيكولوچيا العلمية ماديَّة قطعًا.

وكما أن ضرورة اعتماد السيكولوچيا على مُعطَيات الاقتصاد الماركسي نابِعَةٌ من ضرورة المعرفة الدقيقة ببناء ووظيفة الأحداث الإنسانية التي تتناولها السيكولوچيا؛ فإن طابعها المادِّيَّ -بالمِثْلِ- ناتِجٌ أيضًا من ان تحديد الأحداث السيكولوچية نفسها هو تحديدٌ اقتصاديٌّ، وبعبارة أخرى، ليست الحتميَّة السيكولوچية في حَدِّ ذاتها حتميَّةً مُطلَقَةً؛ فهي لا تؤثِّر -ولا يمكن أن تؤثِّر- إلَّا من الداخل، أي من خلال الحتمية الاقتصادية. وتتوقَّف حدود الحتمية السيكولوچية ومداها على حدود ومدى الفرد نفسه. وتكون للسيكولوچيا أهميَّةً ما دامت تتناول الأحداثَ الإنسانيَّة في علاقتها بالفرد، أمَّا إذا اقتصَرَت على الظواهر الإنسانية وحدها فإنها تفقد هذه الأهمية؛ فلا كيان لسيكولوچيا العمل إلَّا إذا كُنَّا ننظر إلى العمل في علاقته بالأفراد، وبمجرَّد استبعاد ربط الأفراد بالعمل لا يعود العَملُ مشكلةً سيكولوچيَّةً، كذلك يكون الزواج ظاهرةً سيكولوچيَّةً بقدر تفسيره لأسباب زواج فَردٍ مُعيَّنٍ بفرد مُعيَّنٍ آخر، دون أن نتعدَّى ذلك. وهكذا، يتعيَّن على السيكولوچيا دائمًا أن تتواءَمَ مع التحديد الأساسي للظواهر التي تتناولها، أي تحديد العوامل المادية فعلًا. وإذا أردنا أن نعقد مقارَنةً نستطيع أن نقول إن السيكولوچيا تمثِّل بالنسبة للاقتصاد ما تُمثِّله الفسيولوچيا بالنسبة للفيزياء والكيمياء. هذا إذا كان من الممكن حقًّا اختزال الظواهر الفسيولوچية إلى مُجرَّد عمليات فيزيائية- كيميائية، أي أننا باختصارٍ بصدد عِلمٍ يُشكِّل مرحلةً في الدراسة الكاملة للظواهر التي يتناولها، عِلمٍ مُكرَّسٍ لظواهِرَ لا يستطيع ذلك العِلمُ بِمُفرَدِه أن يستنفِدَ دراستها. ولا تملك السيكولوچيا على الإطلاق "سرَّ" الظواهر الإنسانية؛ لأن هذا "السر" لا

وثانيهما: الاتجاه الجديد الذي سار فيه الماركسيُّون المشتَغِلون بالسيكوتكنيك في مجال سيكوتكنيك العمل، ومع ذلك فلا زال السيكوتكنيك يعمل في حالات عديدةٍ في خدمة الرأسمالية الصناعية، ومن أكثر نماذجها المؤسفة حَقًّا تلك التي قدَّمتها "ليون بورديل" وزملاؤها. (انظر مجلة la pensée، العددان 8، 10).

هامش بقلم "ج. كانابا"، الذي أشرف على نشر هذا الكتاب سنة 1947.

يدخل في نطاق السيكولوچيا، فالظواهر الإنسانية تخضع لتحديدٍ ماديٍّ، وإن كان هذا التحديد ليس هو المادَّةَ فحسب. ولذا؛ فإننا نقول إن السيكولوچيا الوضعية غير مُمكِنَةٍ إلَّا على أرض المادية الحديثة، النابعة من الدراسات الماركسية.

ومن العَبَثِ أن نحاول التعرُّضَ لتحليل وعرض هذه الأبحاث في إطار هذه الدراسة الأولية "والتخطيطية" كما يقول الألمان. نحن نريد فقط أن تبرز العلاقة الوثيقة والحميمة التي تربط السيكولوچيا بالماركسية، ما دامت السيكولوچيا تتناوَلُ بصفةٍ عامَّةٍ مجموعَ الظواهر الإنسانية الحقيقية من زاوية حدوثها الفردي فقط.

وستُثبِتُ الأبحاثُ الوضعية -بشكلٍ ملموسٍ- هذه العلاقةَ أكثرَ ممَّا ستُثبِتُها أيُّ اعتباراتٍ عامَّة، غير أنه لا يجب أن نتَّخِذَ من رغبتنا في السيكولوچيا العَيانِيَّة حُجَّةً للإقلال من شأن الاعتبارات العامة المذكورة؛ فلم يكن هَدَفُنا في يومٍ من الأيَّامِ مُجرَّدَ التَّمَسُّكِ ببعض أساليب التعبير إذا انعزلَت حقًّا عن مفهوم الظواهر نفسها. ومن جهة أخرى، لا نزاع في أن السيكولوچيين يتَّجهون بأنظارهم أساسًا إلى الطب عندما يكونون بِصَدَدِ علومٍ مُساعِدَةٍ للسيكولوچيا، بينما الدلالة الاقتصادية هي المسألة الأساسية حقًّا من وجهة نظر الاتجاه الأساسي للسيكولوچيا وتنظيمها. ولذا؛ فمن المهم عندما نكون حقًّا بصدد أُسُسِ السيكولوچيا أن نبيِّن هنا أن "الفطنة السيكولوچية" الحقيقية لا يمكن اكتسابُها إلَّا بمعرفة الظواهر الإنسانية كما هي، بمعزِلٍ عن السيكولوچيا[1]، وعندئذ فقط ستتمكَّن السيكولوچيا من طرح المشاكل بحيث تتوصَّل إلى حلولٍ في متناولها بالفعل.

وتتعلَّق المسألة الثانية بالطريقة التي يترجم بها التحديد المادي للظواهر الإنسانية من وجهة النظر السيكولوچية، أو بعبارةٍ أَدَقَّ: الطريقة التي ترتبط بها الحتميَّة السيكولوچية بالحتميَّة المادية للظواهر الإنسانية. وتظلُّ المسألة بسيطةً ما دامت السيكولوچيا مُحاكاةً للفيزياء؛ فهناك مجموعةٌ من العلاقات التي تَحكُمُ العَمليَّاتِ بصفَةٍ عامَّةٍ. هل نريد -مَثَلًا- سيكولوچيا مادِّيَّة؟ علينا إذن أن نجعل بعض العمليات تؤثِّر على عملياتٍ أخرى: كأنْ تُؤثِّرَ العَمليَّاتُ الفسيولوچية على

(1) هذا تناقُضٌ في الحَدِّ، ومصادَرَة على المطلوب؛ فكيف يمكننا -ونحن بصدد أُسُسِ السيكولوچيا- الحُصولَ على "فطنة سيكولوچيَّةٍ"، مع استبعاد "السيكولوچيا"؟ - السيكولوجيا بوصفها عِلمًا "أخلاقيًّا" "science morale".

العمليات السيكولوچية، والحركات الجزيئية على الأفكار، والغُدَدُ على العواطف. وستؤثِّر على الفكر كما تؤثِّر بصفةٍ عامَّةٍ عملياتٌ على عملياتٍ أخرى، وفقًا لقوانين الميكانيكا أو الكهرباء المغناطيسيَّة. وهكذا، تصبح السيكولوچيا ماديَّةً لأنَّ الناحية الروحية قد تحدَّدَت باعتبارها عمليَّةً عن طريق عمليات المادَّة، ووفقًا لقوانينها.

بَيْدَ أنَّ مَظهرَ المشكلة يتغيَّر تمامًا بمجرَّد ابتعادنا عن سَرابِ العمليات، فعلى مستوى الظواهر "الدرامية" تختلف طريقة تأثير الحتمية تمامًا؛ إذْ يجب أن تكون هذه الحتميَّةُ نفسها "دراميَّةً"، كما أن طريقة تحديد ما هو اقتصاديٌّ لما هو سيكولوچي، وطريقة ارتباط السيكولوچيا بالاقتصاد- أوسَعُ وأعمَقُ من الحَتميَّةِ الطِّبِّيَّة للسيكولوچيا الماديَّة القديمة.

ولقد تعدَّت السيكولوچيا في الحقبة الأخيرة -والحق يُقال- المفهومَ البسيط للتحديد كما عرَّفَته السيكولوچيا الكلاسيكية؛ فقد قَلَّ اهتمامُ السيكولوچيين -على الأقل في المظهر- بتحديد العمليات في الحياة الداخلية، أو تحديد عمليات الحياة الداخلية، واستبدالٍ للفرد في مواجهة موقِفٍ ما، ونستطيع أن نقول إنَّ مفهوم الحتميَّة أصبح بذلك أكثرَ إنسانيَّةً، فبينما كان المَثَلُ العِلميُّ الأعلى للحتميَّة في السيكولوچيا -فيما مضى- هو الترابُطُ المُتسلسِلُ للأفكار حينًا، والأفعال المنعكسة حينًا آخر؛ أصبحت المسألةُ الآن معرِفَةَ سُلوكَ الفرد ككُلٍّ في المواقف التي تتطلَّبُ نشاطًا. ولا شكَّ أننا عند تناوُل التفاصيل سنجد رَجعَةً إلى المفهوم الميكانيكي البحت (وهو المثل الأعلى للسلوكية)، أو إلى المفهوم الرُّوحانيِّ كما في Geisteswissenschaftliche -مَثَلًا-، بَيْدَ أنَّه يمكننا أن نفهم فورًا أن هذه الأخطاءَ ناتِجَةٌ عن الخَلْطِ في الأهداف الحقيقية للسيكولوچيا، ومن الجهل بما ينبغي أن يكون عليه اتجاهها الأساسي؛ إذْ يجب أن ننظرَ بالفعل إلى تصرُّفِ الفرد في المواقف التي يتواجد فيها، وستظهر الحَتميَّةُ السيكولوچية في مجموع استجاباته لا في حَتميَّةٍ تَنْتَقِلُ من عمليَّةٍ لأخرى؛ فالمسألة ليست هي المعرفة -نقطةً نقطةً، وخُطوَةً خطوةً- بالطريقة التي يمكن أن تؤثِّر بها إضاءَةٌ مُعيَّنَةٌ في زيادة إنتاجية العمل بواسطة تَشابُكٍ -لا ندري كُنْهَهُ- بين عَدَدٍ من العوامل البيولوچية- السيكولوچية- الفسيولوچية، بقدر ما هي معرفةُ ما يحدث بالفعل، فما يُحتِّم -وما يُحتِّم- يجب تعريفُه بما هو مُتعلِّقٌ بالإنسان، بما هو أفعالٌ ومواقف الإنسانية.

وبالرَّغم من أن الاتجاه نحو مفهومٍ "دراميٍّ" (أي إنساني) للحَتميَّة في السيكولوچيا قد أصبح ملموسًا عن ذي قبل في الدراسات السيكولوچية الحديثة، إلَّا أنه من الجَلِيِّ أن المفاهيم والبرامج ما زالت تفتقر إلى الدِّقَّة. والواقع أن النظرة إلى الإنسان في مجموعه، وفحص استجاباته في أوضاع مُحدَّدَةٍ ليس هو كل شئ؛ فيجب أن ننظر إلى الفرد كما هو بالفعل، وإلى المواقف كما هي بالفعل. وبعبارة أخرى، نحن في حاجَةٍ إلى مفهومٍ عَيانِيٍّ حقًّا، سواءً بالنسبة للفرد، أو بالنسبة للمواقف الإنسانية. وهكذا، نلاحظ على الفور أنه بالرغم من أن السيكولوچيا الكلاسيكية لا تتجاهل "دراسةَ المواقف" وتُحاوِلُ في أغلب الأحوالِ تَفَهُّمَ الفرد في علاقته "ببيئته"، إلَّا أن مفهومًا لهذه المواقف وتلك البيئة مفهومٌ مُجرَّدٌ، وأُحاديُّ الجانب، وتدفعها أصولُها واتجاهاتُها إلى النظر فقط إلى الموقف "الإيديولوچي" و"التكنولوچي" للفرد، وتنظر إلى البيئة من وجهتَيْ النَّظَرِ الإيديولوچية والتكنولوچية فحسب، مُهْمِلَةً الوضعَ الاقتصاديَّ الأساسيَّ، هذا إذا لم يقتصر الأمرُ على مُجرَّد الاعتبارات البيولوچية، وهذه هي الطريقة التي تتمُّ بها -مَثَلًا- تحليلاتُ المدرسة الاجتماعية لـ "دوركاييم"؛ فقد أفاض "دوركاييم" وتلامِذَتُه في الكلام عن إخضاع السيكولوچيا لعلم الاجتماع، ولكن ما معنى هذا الإخضاع! معناه أن تتحدَّد "التَّصوُّرات الفردية" بواسطة "التصوُّرات الجَمعيَّة"، هذا بصرف النظر عن إخضاع السيكولوچيا لعلم اجتماعٍ روحانيٍّ، وما لم تَكُنْ هذه التصوُّرات الجَمعيَّةُ تعبيرًا عن خبرات الهَذَيانِ الجَمعيِّ؛ فإنها تكون -على أحسن الأحوال- مَسألةَ إدخال "لأشكال اجتماعية" لا تَتَّفِقُ فِكْرَتُها قَطُّ مع التركيب الاقتصادي للمجتمع. وهكذا يقتَصِرُ الأَمرُ من الناحية العملية على النظر إلى "التَّصوُّرات الجمعية" "والأشكال الاجتماعية" التي ينشأ فيها الفرد ويعيش، فالمسألة هنا -بكلِّ وضوحٍ- هي الموقف الإيديولوچي.

ومن جهة أخرى، فإنَّ الوضع التكنولوچي للفرد يُؤخَذُ في الاعتبار: الاستجابات التي يجب أن يكتَسِبَها، والمواقف التكنيكية التي يجب أن يتوافَق معها. ولا شَكَّ أن التَّخلِّي عن وجهة النظر البيولوچية الصِّرف (التي لا تضع الفرد إلَّا في مواجهة الطبيعة) والاهتمام بالجانب الاجتماعي يُعتَبَرُ تَقدُّمًا نِسبيًّا. وبالفعل لا يتعلَّم الطِّفلُ فَقَط التَّنفُّسَ، والرُّؤيةَ، والأَكلَ، والسَّيْرَ؛ بل يَتعلَّم أيضًا الكلامَ، والمُصافَحَةَ، واستخدامَ الأدوات الشَّائِعَة... إلخ. غير أن كل هذه الأشياء أوَّلِيَّةٌ جدًّا، وغير مُؤكَّدة

تمامًا. إنها أوَّلِيَّةٌ جدًّا؛ لأننا نخترع الأمثلة لتوضيح النظريات بدلًا من تحليل الأوضاع الفعلية، وغير مُؤكَّدة؛ لأننا عندما لا نبدأ من هذا التحليل فإننا نسير بِغَيْرِ هُدًى، تدفعنا قُوَّةٌ غامِضَةٌ دون أن ندري بالضبط أين نحن.

وعلى أيِّ حالٍ، فإنَّ هذه النظرة الأُحاديَّة الجانب من كِلتا الناحيتين (الإيديولوچية والتكنولوچية) لا تصلح إلَّا إذا افترضنا أن التنظيم الاقتصاديَّ ينبغي أن يظلَّ بِمَنأًى عن أيِّ مساسٍ به، بحيث لا يوجد ما يدعو إلى معرفته، وأن "الباقي" يكفي: فهناك مصالح غريبة على العِلمِ تَدفَعُ السيكولوچيا نحو التركيب العلويِّ الإيديولوچي، من ناحية، ونحو التكنولوچيا، من ناحية أخرى.

ولمَّا كانت المواقف التي يتواجَدُ فيها الفرد طوال حياته، والأحداث وإمكانيات التصرُّف التي يصادفها، والمُنبِّهات التي تدفعه إلى الاستجابة- تتوقَّف كُلُّها على الظروف الاقتصادية (إذا تَرَكنا الطبيعةَ الخالِصَةَ جانِبًا)؛ فإنَّ كُلَّ تحليلٍ "للبيئة" لا بُدَّ وأن يبدأ بالذات بإبراز هذا التحديد، وإذا استعملنا لُغَةَ "المُنبِّه- الاستجابة" فإنَّ على السيكولوچيِّ في هذه الحالة أن يُدرِكَ الطريقة التي تُنظَّم بها الظروفُ الاقتصادية، الأحداث التي يجب أن "يتفاعل الفرد معها". ولا تهمُّنا هنا تفاصيل آلِيَّةٍ تُحيِّد "الانتقال من الإدراك الحسي إلى الحركة"، بقدر ما تهمُّنا -بالذَّات- ظاهِرَةُ تَوافُقِ الفرد مع الظروف التي يُحكُمُها قانونٌ غيرُ سيكولوچيٍّ بالمرَّة. وعلينا أن نتتبَّع تفاصيل هذا التَّوافُقِ، لا أن نحلم ببداية حركة هذه الآلية أو تلك.

وتتَّضِحُ أولويَّةُ الجانب الاقتصادي فورًا بالنسبة لعلم النفس؛ وذلك بناء على استحالة الحصول على سيكولوچية الفرد إلَّا عن طريق مجموعَةٍ من المتقاطِعاتِ recoupements (البيانات النابعة من مصادر مختلفة). فلا يُمكِنُنا مَعرِفَةُ الاستجابة كما هي إلَّا بِقَدْرِ حدوثها؛ فالاستجابات التي تحدث تَتَناسبُ مع المواقف التي تتمُّ فيها، وقد حاول البعضُ أن يُثبِتَ كيف أن ما يُسمَّى "عقدة النقص" عند الطفل البروليتاري، كما حاولوا إثباتَ كيف أن عُقدَةَ النَّقصِ عند المرأة تَنشَأ من ظروفها الاقتصادية ومن الوضع الاجتماعي القانوني الناتج عن هذه الظروف. وهكذا تصبح عُقدَةُ النَّقصِ عَرَضًا ناتِجًا عن تنظيمٍ اجتماعيٍّ مُعيَّنٍ، وأنه لا جدوى من اعتباره ظاهِرَةً "أبديَّةً" (هذا بالطبع إذا تركنا جانِبًا الأحلامَ الرومانتيكية حول

نَقْصِ الأجهـزة العُضويَّـة)، ولا شَـكَّ أن عُقَـدَ النَّقـصِ تتضمَّـن دروسًـا تتعـدَّى شـكلَها الـذَّاتِيَّ، غـير أن هـذه الـدروس لا يمكـن اسـتخلاصُها إلا إذا أغفلنـا مـا يتحـدَّد بالمواقـف التـي تنتـج عنهـا العُقـدَة، وعندئـذ تصبـح المتقاطعـات ضروريَّـةً. وبعبـارة أخـرى، فإن معرفـة الإنسـان -التـي تعتبرهـا السـيكولوچية الكلاسـيكية نقطـةَ البدايـة في علـم النفـس- لا يمكـن أن تتواجَـدَ بالفعـل إلَّا في النهايـة، تمامًـا شـأنها شـأن علـم النفـس الوظيفـي العـام، الـذي لا يمكـن اسـتخلاصُه إلَّا مـن مجمـوع أبحـاث السـيكوتكنيك بالـذَّات، ولا كـما تَخالُـه السـيكولوچيا مـن أنَّ علـمَ النَّفـس الوظيفـي العـام عِلـمٌ نظريٌّ، وأن السـيكوتكنيك مُجـرَّدُ تطبيـقٍ لـه.

وقـد تُثـارُ هنـا قَضيَّـةٌ، فقـد رأينـا -بوضـوحٍ- كيـف أن عُقـدَةَ النَّقـص -مَثَـلًا- تَتحـدَّد في نهايـة الأمـر بالظـروف الاقتصاديـة (ولسـنا هنـا بِصـدَدِ حقيقتهـا أو مداهـا الفعـلي)، كـما رأينـا بشـكل أوضـح كيـف تصـوغ المادِّيَّـةُ القديمـة مَفهومًـا مادِّيًـا للحُلـم -مَثَـلًا-، كـما رأينـا (مبدئيًـا عـلى الأقـل) كيـف أن نشـاط أو خُمـولَ المُخِّ يُولِّـد الحُلـمَ ومحتـواه. غـير أننـا لم نَـرَ -بالعكـس- كيـف يمكـن لنظريـة الحلـم أن تكـون مادِّيَّـةً إذا تخلَّيْنـا في نفـس الوقـت عـن المادِّيَّـةِ الفسـيولوچية أو البيولوچيـة، أي إذا لم نعـترف بـأن محتـوى الحلـم تُحـدِّدُه العمليـاتُ المُخِّيَّـة.

ويجـب أن نُقـرِّر عـلى الفـور أننـا لا نرفـض -بشـكلٍ مُتعسِّـفٍ- كُلَّ المُحـدِّدات الفسـيولوچية والبيولوچيـة التـي توجَـدُ في الحيـاة النفسـية، ولا داعـي للقـول بأننـا لا نفكِّـر إطلاقًـا في نَفْـيِ الأهميـة القصـوى للظـروف الفسـيولوچية والبيولوچيـة للفـرد بالنسـبة لعلـم النفـس. غـير أننـا يجـب أن نـدرك مـدى هـذا التحديـد كـما هـو بالفعـل. ولـن يتحقَّـق ذلـك إلَّا بِتَتَبُّـعِ التحليـل الدرامـي خُطـوةً خطـوةً، حتـى يصـل بنـا إلى الفسـيولوچيا والبيولوچيـا. ونحـن لم نُـدِنْ المادِّيَّـةَ الطبيَّـةَ إلَّا بسـبب غموضهـا، ولأنهـا موقِـفٌ قاطِـعٌ ومانِـع. ومـن ناحيـة أخـرى، فـإن هـذه قضيـة مُجـرَّدة؛ فنحـن لا نريـد أن نقـول إنَّ دَوْرَ السـيكولوچيا عبـارةٌ عـن البحـث عـن التحديـد الاقتصـادي خلـف الظواهـر السـيكولوچية؛ فنحـن نقـول فقـط إن التحليـل الكامـل للظواهـر السـيكولوچية الفعَّالـة يَكشِـفُ عـن هـذا التحديـد؛ فعلينـا أن نُحلِّـلَ -إذًا- الظواهـر السـيكولوچية كـما تُوجَـد، وبأسـاليبَ تَسـمَحُ بملاحظتهـا وفَحْصِهـا، ويتعـيَّن علينـا أيضًـا أن نواصـل التحليـل حتـى النهايـة، فـلا نُغمِـض عيونَنـا أو نَحيـد عـن الطُّـرُق قبـل أن نصـل إلى أقـصى حـدٍّ ممكـن.

يجـب إذن ألَّا نضـعَ المادِّيَّـةَ القديمـة والجديـدة في نفـس المسـتوى بالنسـبة للسـيكولوچيا؛ فقـد اعتـادت الماديَّـةُ القديمـةُ أن تخـترع لـكلِّ نظـامٍ -أو مجموعـة مـن الظواهـر- إطـارًا مادِّيًـا، ومنهـا -مَثَـلًا- النظريـة الشـهيرة حـول اليقظـة الجزئيـة بوصفهـا عِلَّـةَ الحُلـم، ومثـل هـذا الأسـلوب يُلائِـمُ مَنهجًـا يَسـتَنْفِدُ أغراضَـه فـورًا؛ فإنـه، مـا أن يـشرح غرضـه حتـى يصبـح عديـمَ الجـدوى، ولكننـا نقـوم هنـا بـشيء مختلـفٍ تمامًـا، فلسـنا بِصـدَدِ "نظريَّـةٍ مادِّيَّـةٍ للحُلـم"، وإنمـا بصـدَدِ دراسـة الحُلـمِ في نطـاق السـيكولوچيا ذات الطابـعِ المـادِّي؛ فنحـن نُحلِّـل الحلـم، ونتتبَّـع -حتـى النهايـة- كُلَّ العوامـل التـي تتدخَّـل في نشـأته وتطـوُّره، ثُـمَّ إن مـا يهـمُّ هـو محتـوى الحلـم والصراعـات التـي تُوجِـدُه وتُحـدِّدُه، وهكـذا نجـد أنفسـنا فـورًا في نطـاق "الحـدود العاديـة للأحـوال الإنسـانية".

ونحـن لا نحـاول -بـأيِّ حـالٍ مـن الأحـوال- أن نلعـب بالمادِّيَّـة، فـلا نُقْحِمُهـا حيـث يجـب أن يَنْبُـعَ الفَهـمُ الواضِـحُ مـن الدراسـة السـيكولوچية فقـط، فعلينـا أن نقـوم بهـذه الدراسـة ونَـتركَ الكلِمَـةَ بعـد ذلـك للمادِّيَّـةِ، حيـث يجـب أن تتكلَّـم بالفعـل. وهـذا هـو كل الفـرق بـين الماديـة القديمـة والجديـدة، فـالأولى تجعـل كلَّ شيء مادِّيًـا، بـلا تَعَقُّـلٍ أو تمييـز، وهـي عـلى اسـتعدادٍ لِـتَرْكِ الكلمـة للمادِّيَّـة في أي مـكان، ثـم تصمـت حيثـما يجـب أن تتكلَّـم فعـلًا. أمَّـا الماديـة الجديـدة فتـدرس الظَّواهِـرَ بطريقـةٍ موضوعيَّـةٍ حقًّـا، وبـدلًا مـن أن تختلـق -اختلاقًـا- تحديـدًا مادِّيًـا، فإنهـا تنتهـي إلى التحديـد المـادِّيِّ القائـم فعـلًا.



-6-

تَوصَّلنـا في كتاباتنـا السـابقة إلى أن نسـتبدل بالمقابَلَـةِ الغامضـة للسـيكولوچيا "الكلاسـيكية" بالسـيكولوچيا "الجديـدة" مُقابَلَـةً أَدَقَّ، وهـي مُقابَلَـةُ السـيكولوچيا "العَيَانِيَّـة" بالسـيكولوچيا "المُجـرَّدة"، ومـن هـذه المُقابَلَـةِ الأخـيرة -التـي وَضَّحنـا ضرورتَهـا- يتعـيَّن علينـا أن نتوصَّـل إلى الشـكل الأسـاسي حَقًّـا لهـذه المقابلـة، التـي تُعتَـبَرُ أسـاسَ "أزمـةِ" السـيكولوچيا: وهـي مقابلـة السـيكولوچيا المثاليـة بالسـيكولوچيا الماديـة.

فمُقابَلَـةُ السـيكولوچيا "الكلاسـيكية" بالسـيكولوچيا "الجديـدة" تتعلَّـق فقـط بالمحـاولات الصادِقَـة أو غـير الصادقـة (وأغلبهـا غـير صـادق)؛ للتخلُّـص مـن التقاليـد التـي سـارت عليهـا السـيكولوچيا منـذ نشـأتها حتـى القرن العشريـن. وتتعلَّـق مقابلـة السـيكولوچيا "المجـرَّدة" بالسـيكولوچيا "العَيانِيَّـة" بنقـد هـذه التقاليـد عـلى غـرار مـا فعلنـا. وبالرغـم مـن ضرورة هـذه المقابلـة وفائِدتهـا تكنيكيًّـا إلَّا أن مـن عيوبهـا أنهـا تعـزل السـيكولوچيا بـكلِّ عيوبهـا وضرورات إعـادة بنائهـا، عـن الوَضْـعِ الحقيقـي، الـذي تُعـبِّر عنـه هـذه العيـوب والـضرورات؛ لـذا فيلزمنـا أن نضـع في أسـاس Sou tendre هـذه المقابلـة مُقابَلَـةً أخـرى أقـلَّ شـكليَّةً، وبـدلًا مـن أن نقتـصر عـلى النظـر في الجانـب التكنيـكي مـن "أزمـة السـيكولوچيا"، علينـا أن نعتـبر هـذه الأزمـة حالَـةً خاصَّـةً مـن حـالات النـزاع بـين الماديـة والمثاليـة. وبهـذه الطريقـة فقـط يسـتطيع نَقـدُ أُسُـسِ السـيكولوچيا أن يتحـرَّكَ في مجـالٍ حقيقـيٍّ تمامًـا؛ فـكلُّ المحـاولات في السـيكولوچيا تَنْتَسِـبُ إمَّـا للمثاليَّـة، أو للماديَّـة، شـأنها في ذلـك شـأنَ المحـاولات في الفلسـفة. غـير أن النقـد السيكولوچـي المعـاصر بـدلًا مـن أن يعـترف بهـذا الواقـع فإنـه يلجـأ إلى حِيَـلِ التمويـه في المعـاني لـكي يخفـي التعـارُضَ الحقيقـي، غـير أنـه يتعـيَّن علينـا إبـراز هـذا التعـارُض؛ لأننـا نسـتطيع ابتـداءً مـن هـذا التعـارض أن نتنـاول فيـما بَعـدُ التَّعارُضـاتِ ذات الطابـع التكنيـكي البحـت.

حاولنـا في السـطور السـابقة إبـرازَ ضرورة الماديـة بالنسـبة للسـيكولوچيا؛ مـمَّا دَفَعَنـا في كثـيرٍ مـن الأحـوال إلى التَّطـرُّق إلى السـيكولوچيا المثاليـة، ونريـد أن نقـول الآن بِضْـعَ كلـماتٍ حـول مـا نعنيـه بالمثاليـة في مجـال السـيكولوچيا.

لا جـدال في أن الرُّوحانيَّـة، أو واقعيـة الحيـاة الداخليـة، كـما اعتدنـا أن نقـول، أكـبرُ دليـلٍ عـلى المثاليـة في السـيكولوچيا، ومـع ذلـك، فـإن مفهومَـيْ الرُّوحانيَّـة والمثاليَّـة لَيْسَـا عـلى نفـس المسـتوى؛ فالرُّوحانيـة تكشـف عـن المِثاليَّـة التـي وَلَّدَتهـا، وعليـه؛ فيجـب أن نُصعِّـدَ مـن الرُّوحانيَّـة إلى مسـار المثاليـة؛ لـكي نتمكَّـن فيـما بعـد مـن التعـرُّف عـلى المثاليـة حيثـما وُجِـدَت.

وتتمثَّـل الرُّوحانيَّـة في نهايـة الأمـر في بنـاء عالَـمٍ وَهمـيٍّ عـلى نمـط الطبيعـة الفيزيقيـة، أي طبيعـة ثانيـة. ولا شَـكَّ أن هـذه منـاورة بارِعَـةٌ؛ إذْ سـيحدث خَلـطٌ دائـمٌ بـين "الطبيعتَـيْن"، فسـيكون هنـاك -بالتأكيـد- معنًـى لِـما يُقـال، ولكنـه لا يتعلَّـق

بالموضوع المقصود؛ فواقعية إحدى "الطبيعتين" ستُخفي لا واقعيَّةَ الأخرى، وستتَّجِهُ الأنظار إلى الأولى ونحن نتكلَّم عن الثانية.

وهكذا يُحِلُّون واقِعًا وهميًّا مَحلَّ الواقع الذي لا يريدون -أو لا يستطيعون- دراسَتَه، وبذلك يستبعدون من مجال الأشياء الموجودة جزءًا هامًّا من صيرورتها: تلك هي السِّمَةُ المثالية للروحانية، فبدلًا من دراسة الظواهر الواقعية للإنسان يُختَرَعُ عالَمٌ جديدٌ لا واقِعَ له. ولكي لا يقوموا بما هو مطلوبٌ منهم يَدَّعون أنهم يقومون بما هو أفضل. وتحت ستار القيام بدراسة "حقيقية" للواقع نجدهم يُدَلِّسُونها بوسائِلَ بارِعَةٍ، بحيث لا نجد أنفسنا عندما نشرع في الدراسة إلَّا أمامَ وَهْمٍ، وليس التحوُّل الذي سبق أن تكلَّمنا عنه سوى هذه المُدالَسةِ، مُنظَّمَةً، ومُقامَةً في شكل أسلوب دقيقٍ لا شعوريٍّ. ويتحوَّل محتوى السيكولوچيا كلُّه بعد ذلك إلى مجموعة من المبادئ المُعلَنَة، تصبح أكثرَ ادِّعاءً، ومُبالَغَةً، وجَسارَةً، وإيهامًا بالآمال العِراض؛ لأنها ليست في الحقيقة سوى مبادِئَ خالِيَةٍ من أي محتوًى واقعيٍّ حقيقيٍّ، ولا تُظْهِرُ كُلَّ مُبالَغَةٍ أو أَمَلٍ إلَّا في المكان المُحدَّد الذي حَلَّ فيه الوهم مَحلَّ الحقيقة.

وهكذا يحكي الروحانيُّ قصصًا هائِلَةً حول "ما هو نَسيجُ وَحْدِه" sui generis. ولو لم تُدلِّس السيكولوچيا على الواقِعِ الإنسانيِّ لَمَا أصبح "ما هو نسيجُ وَحْدِه" الموضوعَ المُفضَّلَ لديها. ولو اكتَفَت السيكولوچيا بالحقيقة كما تبدو في التجربة الإنسانية لَمَا كانت في حاجةٍ إلى اختراع كلِّ هذه الأساطير الخاصَّة بطبيعة الروحانيات: ولكن لَمَا كان الذين يعيشون في الجبال مُجْبَرِين على الظُّهور بمظهر المُنهَمِكِين في عَمَلِهم؛ كذلك كانت السيكولوچيا في حاجَةٍ إلى تصريحاتٍ غير عاديَّةٍ حول الطبيعة الرائعة للواقع، ذلك الواقع الذي لا وجودَ له؛ لأنها تقصد أن تدرس الواقع مَهْمَا كان؛ لذلك كان لا بُدَّ من تأكيد رَوْعَةِ واقعٍ غير موجودٍ لكي يَنسوا ويجعلوا الآخرين يَنْسُونَ واقِعًا قائِمًا.

وعندما يخترعون الحياةَ الداخلية فإنهم يفتحون ثغرةً كبيرة في صَيرورَةِ الأحوال الإنسانية، تؤدِّي -ببساطَةٍ- إلى الفراغ والعَدَم. وهكذا يأتي العمل الإنساني من العَدَم، ويعود إلى العدم؛ فهو يَصْدُرُ من الحياة الداخلية التي (بسبب عدم وجودها) لا يحدث فيها أيُّ شيء، ثم يعود إليها. وبإدخال الحياة الداخلية في

مفهـوم الأحـوال الإنسـانية تنشـأ إمكانيّـةُ الوصـول بهـا إلى حيـث لا يوجـد مـكانٌ للواقـع. وتُفسَّر الأحـوال الإنسـانية بقصـصِ الجـانّ، بعـد اسـتبعادِ الجـانّ منها، وتسـمح "الحيـاة الداخليّـةُ" بالقفـز في اللحظـة التـي يجـب أن يحـدث فيهـا شيءٌ، إلى مـسرحٍ لا يُمكِـنُ أن يحـدث عليـه أي شيء. ولـذا؛ **فـإن أي سـيكولوچيا تعـترف -بطريقـة أو بأخـرى- بالحيـاة الداخليـة هـي بالـضرورة سـيكولوچيا مثاليّـة؛ ولهـذا السـبب أيضًـا فـإن أيَّ سـيكولوچيا مثاليـة تعـترف دائِمًـا -بطريقـةٍ أو بأخـرى- بالحيـاة الداخليـة.**

غـير أن هنـاك أشـكالًا أكـثرَ دَهـاءً مـن السـيكولوچيا المثاليـة، إلى جانـب تلـك الأشـكال الفَجّـة، التـي فيهـا تحتـلُّ الطبيعـةُ "نَسـيجُ وَحدِهـا" مَحـلَّ الواقـعِ الإنسـاني، أيْ واقعيـة الحيـاة الداخليـة الفَجّـة كـما نُصادِفُهـا في السـيكولوچيات الروحانيـة الواضحـة والصريحـة. غـير أن الفـارق يتمثَّـل -ببسـاطَةٍ- في عـدم إبـراز واقعيـة الحيـاة الداخليـة، مـع الإبقـاء عـلى العـدم مَصـدرًا ومَصـيرًا للعَمَـلِ الإنسـانيّ؛ وهكـذا يسـتبدلون بفكـرة الجَوْهَـرِ مَقـولاتِ "الشَّـكل" و"البنـاء" و"الشـخص"، ويضعـون هـذه المقـولات قبـل -وفـوق- الظواهـر الرُّوحانيـة، غـير أن كل مـا هـو أسـاسيٌّ في فـرض الحيـاة الداخليـة يظـلُّ قائِمًـا، وهـو أن يكـون هنـاك ميـدان سـباقٍ لا تجـري فيـه سـوى الأشـباح. فسـواءً وضعـوا في مُقدِّمَـة تلـك السـيكولوچيا فكـرةَ الشَّـكل أو البنـاء أو الدلالـة أو الشـخص؛ فإنَّنـا نَظَـلُّ في عـالم الأشـباح. سـيظل هنـاك دائِمًـا شيءٌ آخـر غـير مجمـوع الظواهـر الإنسـانية الحقيقيـة (هنـاك دائمًـا "لا شيء" يوضَـعُ في أسـاس "شيء مـا")، وتتحـرَّك هـذه الأشـباحُ الشَّـفَّافَةُ في مجـالٍ كُلُّـه شـفافِيَةٌ بـلا رؤيـة: معجـزة الأشـياء الوهميـة التـي تسـتطيع تحقيـقَ نتائـج حقيقيـة.

بعبـارة أخـرى، فـإن السِّـمَةَ الأساسـيةَ للمثاليـة -في السـيكولوچيا وفي غيرهـا- تتمثَّـل في تحويـل الأشـياء الواقعيَّـةِ إلى عَـدَم، أيًّـا كانـت طبيعـة هـذا التحويـل وطريقـة وصف هـذا العـدم فيـما بعـد. وبالفعـل، نجـد في مجمـوع الاتِّجاهـات السـيكولوچيّةِ سلسـلةً مُتدرِّجَـةً مُتَّصِلَـةً مـن درجـات الروحانيـة، ابتـداءً مـن أكـثر الروحانيـات فجاجَـةً، حتـى أكـثر المفهومـات هَبـاءً، للعَـدَم. غـير أننـا نجـد أنفسـنا دائمًـا في لحظـةٍ تصبـح فيهـا الصَّـيرورَةُ مُجـرَّد سـحرٍ، فيتـلاشى الإنسـانُ الـذي يعيـش ويعمـل، وتتـلاشى معـه الأشـياءُ التـي يَعْمَلُهـا، والأحـداثُ التـي يَرتَبِـطُ بهـا، بحيـث يـترك مكانَـه لهـذا "الـلاشيء" الـذي يجـب أن يُولَـدَ منـه مـرَّةً أخـرى، بـكلِّ مـا يعمـل، ومـا يحيـا.

وقد احتجَّت الاتجاهاتُ السيكولوچيَّةُ ذاتُ المَنبَعِ المادِّيِّ دائمًا على هذا التحوُّل، وضدَّ هذا التَّلاشي في العدم، فلم تعترف -قَطُّ- بأن شيئًا ما (يوجَدُ ويعمل، كما توجَدُ وتعمَلُ بقيَّةُ الأشياء العاديَّة) يُمكِنُ أن يُصبِحَ -فجأةً- لا شيءَ، لمُجرَّد استمراره في وجوده أو عمله. وهذا ما يحدث بالنِّسبة للإحساس؛ فالمُنبِّه يؤدِّي إلى التنبيه الذي يَعْقُبُه الإحساسُ، وتَستمرُّ العمليَّةُ، ولكنَّ الإحساسَ يصبح -باسْمِ كلِّ ما يوجد ويعمل- لا شيء. لقد بدا للفلاسفة والسيكولوچيين ذوي الاتجاه المادي -دائمًا- أن التحوُّلَ الفُجائيَّ للحركة إلى فكرةٍ، والفكرةِ إلى حَرَكَةٍ، وتحويل التقلُّصات الحَشويَّة إلى انفعالاتٍ، والانفعالات إلى إيماءات- نَوعٌ من تحويل الشيء إلى عَدَم، وتحويلِ العَدَم واللاشيء إلى شيء؛ ولذا حاولوا دائمًا الاحتفاظَ "بالشيء". وهذا هو السبب في أنهم بحثوا -وما زالوا يبحثون- عن "الشيء" الحقيقي الموجود منذ البداية، أيْ المادَّة الكامِنَة وراءَ العاطفة والفكرة والإرادة. غير أن هذا الشكل الأول للمادية لا يُعبِّر إلَّا عن العزم على عدم الاعتراف "بالتحويل"، وهي الإمكانية الوحيدة أمامه إذا استمرَّت السيكولوچيا في إثارة القضية الأساسيَّة بالطريقة الكلاسيكية: جسمٌ "عارٍ"، في مواجَهَةِ طبيعَةٍ "عارِيَة".

إن الأسلوب الذي سبق أن أشرنا إليه لتغيير القضية الأساسية في السيكولوچيا يجعل "الواقع الإنساني" (لا "المادة") هو "واقع" السيكولوچيا. وقد يُعوِزُ هذا التَّعبيرُ الوضوحَ الأكاديميَّ، إلَّا أنه لا جدوى هنا من تعقيد الأمور؛ فالزَّواج والجريمة والعمل وقائِعُ إنسانيَّةٌ، وتُمثِّل هذه الوقائِعُ -وغيرُها- من مجموعةِ الظَّواهِرِ الدَّاخِلَة في نفس النطاق "واقِعَ" "السيكولوچيا" الذي سَمَّيناه "الدراما". وسنظلُّ في مجال الأشياء الطبيعية والواقعيَّة إذا ما بَقِيَت السيكولوچيا في هذا المستوى، وطوال تعلُّقِ التأكيد والوصف أو النظرية بالتطوُّرات الفعلية للإنسان أو للبشر. أمَّا السيكولوچيُّون المثاليُّون فإنهم يهجرون هذا الواقِعَ لكي يَصِلُوا إلى العَدَم.

والمثاليَّةُ وحدها هي التي تتمسَّك بـ "الحكم السيكولوچي المُسبَق" préjugé، أي بالرأي القائِلِ بأنَّ في وسع السيكولوچيا تقديمَ تفسيرٍ نهائيٍّ لأيِّ شيء. كما أن "الحُكْمَ السيكولوچي المُتحامِلَ" هو من الناحية الأخرى دليل دائمٌ على المثالية. وهكذا، فإنَّ كافَّة المدارس التربوية المؤسَّسة على السيكولوچيا وحدها -والتي لا تتوقَّع التَّغييرَ إلَّا بمعجزةٍ تحدُثُ في "الداخل"- هي مدارِسُ مِثالِيَّةٌ؛ لأنها في نهاية الأمر تَعْتَبِرُ العَدَمَ مَنبعًا لحدثٍ حقيقيٍّ، أو مجموعة من الأحداث الحقيقية.

وينطبق هذا أيضًا على "المعرفة بالإنسان" بصفة عامّة. إن القول بأن هذه المعرفة مُمكِنَةٌ فقط بالطرق التي اصْطُلِحَ على تَسمِيَتِها "سيكولوچيا"، أو القول بأن الكملة الأخيرة تبقى للسيكولوچيا- هو محاوَلَةٌ لتفسير الجُبن "الجرويير"[1] بالثقوب التي تَتخلَّله، أيْ تفسير الشيء بالعَدَم.

والحَقُّ أنَّ السيكولوچيا لا تُعرِّفُنا -ولا تستطيع أبدًا أن تُعرِّفَنا- بأيِّ بداية؛ فهي ليست في "البداية"، ولكنها في "الوسط". فلا يوجد في الإنسانِ أيُّ شيء أو حَدَث أو ظاهرة تستطيع السيكولوچيا أن تَدرُسَها دراسَةً كاملة، أو ينبغي أن تقول الكلمةَ الأخيرةَ فيها. فكلُّ ما يحدث لإنسانٍ يتقرَّر بِدقَّةٍ من خلال مجموع الأحداث التي يعيشها، غير أن هذه المجموعة من الأحداث مُترتِّبة هي أيضًا على البناء الاقتصادي، وهنا نستطيع بالتأكيد أن نتكلَّم عن تحديدٍ تفصيليٍّ نُقطةً نقطة. أمَّا محاولة اعتبار التفسير "السيكولوچي" تفسيرًا نهائيًا (ولو في معرفة الإنسان) فيكشف فورًا عن الموقف المثالي بالنسبة لمجموع الأشياء الإنسانية.

وعندما نُقِرُّ بأن السِّمَةَ الأساسيَّة للسيكولوچيا المثالية هي التحوُّل إلى العَدَم فإنَّنا نَقِفُ على أرضِ واقعيَّةِ الحياةِ الدَّاخليَّة. والمسألة تبدو بسيطةً إلى حَدِّ السذاجة؛ فلمَّا كانت الحياةُ الداخليَّةُ لا شيئًا؛ فَكُلُّ محاوَلَةٍ للالتجاء إليها ليست في الحقيقة سوى رغبة في دَلْسِ الواقع، فإذا ما استبعدنا الواقعية نفسها كمرجع؛ ماذا يتبقَّى؟ لا يبقى إلا الأفكار "الصِّرف"، أيْ "الدلالات"، وهذا هو الشئ الوحيد الفعَّال الذي يتبقَّى للسيكولوچيا العادية في حالة تَخلِّيْنا عن كُلِّ حقيقيةٍ فيما هي بالذَّات noumene، أو فيما هي ظاهِريَّة[2] لِماَ هو "رُوحيٌّ"؛ لأن "العواطف" نفسها ليست هنا سوى دلالاتٍ "عَمياءَ"، أيْ أنَّها تكون مَسوقَةً في افتعالٍ بدون دلالاتها.

فالسيكولوچيا الكلاسيكية تقول إن شخصًا ما يتصرَّف بطريقةٍ ما لأنه يفكر في أمر مُعيَّن، فإذا جَرَّدنا التفكير من كل واقعية تتبقَّى لنا "دلالة" صِرفٌ وبسيطة؛ وهي ما يفكِّر فيه الشَّخصُ، ومع ذلك، فإنَّ فِعْلَه حقيقَةٌ؛ فهو لم يَكْتَفِ فقط بالقيام "بحركاتٍ"، ولكنه أثار حَدَثًا إنسانيًّا ترتَّبَت عليه أحداثٌ واقعيَّةٌ، كأنْ

(1) gruyere: نوع من الجبن الفرنسي تتخلّل أقراصَه ثُقوبٌ واسِعَة. (المترجم).

(2) المقصود هنا الـ noumene: "الشيء بالذات"، والـ phenomena "الشيء الظاهريّ" عند "كانط".

يَرتَكِبَ جريمةً -مَثَلًا-. وهكذا، لا يُمكِنُ تفسيرُ العمل الحقيقيِّ أو الحدث الإنساني -الذي تتخطَّى واقعيَّته الفردَ نفسَه- في السيكولوچيا العادية إلَّا "بدلالته"؛ فالسِّمَةُ الأساسية للسيكولوچيا المثالِيَّة هي في نهاية الأمر تفسيرُ الأشياء الحقيقيَّة بالدلالات.

نَستَنتِجُ ممَّا سَبَقَ أن السيكولوچيا -كما هي في العادَةِ- مِثاليَّةٌ في الأساس. وإذا تجاوزنا عن الواقعية، أيْ عن دراسة الحياة الداخلية التي لا تستطيع السيكولوچيا العادية أن تقوم بها (لأن الحياة الداخلية ليست حقيقةً)، وأخذنا في الاعتبار ما تقوم به فِعلًا؛ لَوَجَدنا أنَّ السيكولوچيا هي النظامُ الذي يتناول الظَّواهِرَ التي "يجب" تفسيرُها بدلالاتٍ فحسب، والَّذي يُؤَكِّد أيضًا أنه توجد فِعلًا ظواهِرُ تُفسَّر بهذه الدِّلالات. والظاهرة السيكولوچية هي ظاهرةٌ تبدو مُترَتِّبَةً على دلالة، والتفسير السيكولوچي هو التفسير الذي يشرح الأشياء بالدلالات.

وهذا هو -بالدِّقَّة- الشيء المستحيل. ولا تظهر هذه الاستحالَةُ بالطبع طالما كانت السيكولوچيا تختار ظواهِرَها من بين الأشياء الواقعية؛ ولهذا تختار السيكولوچيا أشياءَ غيرَ واقعيَّةٍ بالذَّات كنقطةِ بدايةٍ؛ حتى لا تتَّضِحَ هذه الاستحالة. غير أنها تضطرُّ إلى الاعتراف بهذه الاستحالة بمجرَّد موافقتها على اتِّخاذ الأشياء الواقعية نُقطَةَ بداية.

فالأشياء الواقعيَّة لا تُفسِّرها -بالفعل- إلَّا أشياءَ واقعيَّةً؛ ولذا لا بُدَّ من تغيير كل شيء، لا بُدَّ من تغيير مفهوم الظاهرة السيكولوچية لكي لا تهتمَّ السيكولوچيا إلَّا بالوقائع، ولا بُدَّ من تغيير فكرتنا عن التفسير السيكولوچي حتى يُفسِّرَ الأشياءَ بأشياءَ أخرى. وهكذا يتلاشى كلُّ مفهومٍ قديمٍ لِعلمِ النَّفس، من حيث هو مَفهومٌ مِثاليٌّ في الأساس. وإذا كُنَّا نحتفظ بنفس الاسم القديم للأبحاث الجديدة تمامًا؛ فذلك بِقَصْدِ تيسير الأمور.

-7-

يوجـد إذًا مفهومـان للسـيكولوچيا، يواجِـه كُلٌّ منهـما الآخـر، يؤمـن المفهـوم الأوَّل بأنـه توجَـدُ حقائِـقُ تُفـسَّر في نهايـة الأمـر بـدلالاتٍ: وتلـك هـي السـيكولوچيا المثاليـة. أمَّـا المفهـوم الثـاني فـلا يريـد أن يفـسِّر الحقائـق إلَّا بحقائِـقَ أخـرى: وتلـك هـي السـيكولوچيا الماديـة. وينطلـق المفهـومُ الأوَّلُ مـن "الحُكـم السيكولوچـي المنحـاز مسـبقًا". أمَّـا المفهـوم الثـاني فـلا يعـترف بهـذا الحكـم المنحـاز مسـبقًا، بـل يسـتخلص الظواهـر السـيكولوچية مـن خـلال مجمـوع الظواهـر الإنسـانية العاديـة، دون أن يُدلِّسَـها ليُحِـلَّ مَحلَّهـا صـورةً مُحوَّلَـةً تحـاكي الطبيعـة الفيزيقيـة. وهـو بعـد ذلـك يفسِّر الظواهـر بظواهِـرَ أخـرى مـن نفـس النـوع. ويعتـبر المفهـوم الأول أن المبـدأ الأخـير في التفسـير هـو العَـدَم، أو الـدلالات، في أحسـن الأحـوال. أمَّـا التفسـير الأخـير بالنسـبة للسـيكولوچيا الماديـة فهـو ذلـك الـذي يحـدِّد الظواهـر الإنسـانية، تلـك الظواهـر التـي لا تـدرس السـيكولوچيا سـوى إحـدى جوانبهـا.

قـد يبـدو أن كل مـا سـبق يُعـوِزُه الكثـير مـن الدِّقَّـة، وهـذا صحيـحٌ بالفعـل، ولكـن هـذه الأشـياء لا تَتِـمُّ كُلُّهـا مـرَّةً واحـدة، وكل مـا يعنينـا هنـا هـو تحديـد الاتجـاه الحقيقـي الـذي سيسـير فيـه نشـاطنا مـن الآن فصاعـدًا. وقـد يعتقـد البعـضُ أننـا لم نَبْـغِ سـوى إثـراء ترسـانة لطائـفِ المَعـاني Nuance، ولكننـا أردنـا أن نثبـت أن كل لطائـف الحركـة السـيكولوچيَّة كاذِبَـةٌ وعَقيمـةٌ، وأن الاتجـاه الوحيـد الذي سـيتيح للسـيكولوچيا إمـكانَ تقديـم شيءٍ مُجْـدٍ حقًّـا هـو الاتجـاه المـادِّيُّ الحديـث. وأردنـا أن نُثبِـتَ أيضًـا أن السـيكولوچيا الماديـة لا تُواجِـهُ سـوى عَـدوٍّ واحِـدٍ، بالرغـم مـن التَّشـابُك المُعقَّـد للمحـاولات والاتجاهـات المختلفـة، هـذا العَـدوُّ هـو السـيكولوچيا المثاليـة. ولا يوجـد تعـارُضٌ إلَّا في هـذه المسـألة، أمَّـا السـيكولوچيُّون الذيـن يَدْعُـون لآراءٍ تبـدو مُتبايِنَـةٍ تمامًـا في المظهـر، فَهُـمْ في الواقِـع مُتَّفقـون تمامًـا.

ونحـن نعلـم أنهـم سـيواجهوننا مـرَّةً أخـرى، وبِقُـوَّةٍ، بالحُجَّـة التـي واجهونـا بهـا مـن قبـل. فَلْتقيمـوا إذًا هـذه السـيكولوچيا العَيَانيَّـة أو المادِّيَّـة التـي تتكلَّمـون عنهـا. وقـد سـبق أن قُلنـا مرارًا إن العيـب لا يـأتي مـن جانِـبِ الأبحـاث التـي يسـير بعضُهـا في الطريـق الصحيـح، ولكـن مـن جانـب النظريـة التـي لا تتَّفِـقُ أبـدًا في أي موضـعٍ منهـا

تقريبًا مع ما يجب أن يكون. نحن إذًا في وضعٍ يَستَدعي في الوقت الحالي مَزيدًا من النَّقد؛ فنحن لا نخشى أن تُطمَسَ فكرةُ هذا النَّقد، ولكن نخشى أن يَعْتَرِيَها الغُموضُ إذا تركناها من أجل أبحاث تفصيلية قبل أن تصبح واضِحَةً تمامًا، على حين أن هذه الأبحاث ستتمُّ بعدَئِذٍ وستتحقَّق في إطار مفهوم السيكولوچيا التي تكلَّمنا عنها.

مُلحَق

عِلمُ النَّفسِ العامّ والسَّيكوتِكْنيك

لا شَكَّ أنه لم يَفُتْكُم أنَّ السيكولوچيا لم تتمكَّن -بعد خمسين عامًا من المحاولات- من تكوين فكرةٍ واضِحَةٍ عن أُسُسِها، فهي لم تُحدِّد الظَّاهِرَةَ السيكولوچية والمنهج السيكولوچي بطريقةٍ يقبَلُها كلُّ عُلماء النفس. ويرجع السَّببُ في هذا الوضع إلى عامِلَيْن، فمِنْ جِهَةٍ: لا يُمكِنُ مُعالَجَةُ لُبِّ تعاليم السيكولوچيا التقليدية، وخاصَّةً مَذهَبُ واقعيَّةِ الحياة الداخلية وفقًا لمفهوم العلوم الوضعيَّة؛ لأنها تَنبُعُ من أصلٍ غريبٍ على التجربة. ومن جهةٍ أخرى: لا زالت هذه التعاليمُ تَعيشُ بِعنادٍ غريبٍ في أغلب المحاولات، وتُعَرْقِلُ الجهودَ الطِّبِّيَّة المَبذولة.

لذا يتَّجِهُ الاهتمام الأوَّل للمحاولات الجديدة المعاصرة نحو تَصفِيَةِ السيكولوچيا الكلاسيكية، إمَّا بالتخلِّي تمامًا عن الأفكار التقليدية، وإمَّا بإبراز خطأ أو عُقْمِ أساليبها الأساسية.

وقد أثبَتَت خبرةُ البرامج المختلفة التي وُضِعَت في الحقبة الأخيرة، والتي لم يُفْلِحْ أيٌّ منها، أن يكون مُرضِيًا تمامًا أنَ حَلَّ مشكلة أُسُسِ السيكولوچيا لن يتحقَّق عن طريق تأمُّلاتٍ نظريَّةٍ مَحْض، وأن الطريقة الوحيدة لتصفية المفاهيم

المُعَرْقِلَة هي استخلاص المَنْبَعِ الأساسي للأبحاث السيكولوچية التي ترتبط بِحُكْمِ اتِّجاهها ارتباطًا وثيقًا بالظواهر الحقيقية، فضلًا عن أنها تدور بطبيعتها خارج الاهتمامات والمشاكِلِ التقليدية للسيكولوچيا الكلاسيكية.

وهي هي حالَةُ عِلمِ النفس الصناعي بالذَّات، والسيكوتكنيك بصفةٍ عامَّةٍ.

فهذان العِلمان أَبْعَدُ من أن يكونا مجرَّدَ تطبيقٍ للسيكولوچيا العادِّيَّة؛ وذلك بِحُكْمِ الظواهر التي يَدْرُسانِها، والاتجاهات التي تتضمَّنها هذه الظواهرُ على نَحوٍ عَيَانِيٍّ. فعِلمُ النفس الصناعي والسيكوتكنيك يتعَدَّيان التعريفَ الكلاسيكيَّ للظاهرة السيكولوچية، ويخرجان عن نطاق مشاكل السيكولوچيا التقليدية؛ ولذا فمن المهم جدًّا -من زاوية البحث عن حَلِّ مُشكلة أُسُسِ السيكولوچيا- أن نبحث عن كيفية استخلاص علم نَفْسٍ عامٍّ عَيَانِيٍّ من علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك، وذلك خِلافًا لما تراه السيكولوچيا الكلاسيكية من أنَّ علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك لَيْسَا إلَّا تطبيقًا لعلم النفس العام. على أن يكون ذلك العلم مُختلِفًا بالتالي عن علم النفس العام المجرَّد الحالي، الذي توصَّل إلى مفاهيمه الأساسية وتقسيماته خارجَ نطاق التجربة.

ويمكننا أن نتصوَّر سيكولوچيا جديدة وأصيلة لا تستند في أساسها على البيولوچيا

أو الفسيولوچيا، ومع ذلك تَظَلُّ بمنأًى عن المشكلات التقليدية للسيكولوچيا الكلاسيكية، بل بمنأًى على نَحوٍ جذريٍّ عن مفهوم الحياة الداخلية، أيًّا كان الشكل الذي يتَّخذه.

غير أنه يتعيَّن على هذه السيكولوچيا المطلوبة تعريفُ الظاهرة السيكولوچية على أنها "قِطاعٌ من حياة الفرد" حتى تصل إلى هذه النتيجة. فهي إذًا "سيكولوچيا عَيَانِيَّة" لا تُعنَى بالمشاكل الوظيفية المُحبَّبة لدى السيكولوچيا الكلاسيكية.

إلَّا أنه لا نِزاعَ في أن المشاكل الوظيفية لها هي أيضًا معنى عَيَانِيٌّ، فيتعيَّن علينا أن نتبيَّن كيف يمكن التَّعرُّض لها دون أن تُتَّخذ دراسَتُها ذَرِيعَةً للاحتفاظ بالمخزون الميتافيزيقي للسيكولوچيا الكلاسيكية، أو لإقحامه من جديد، وبالتالي:

أوَّلًا: بدون واقعيَّة الحياة الداخلية.

ثانيًا: بدون المفاهيم التقليدية المتفرِّعة من النظرية المدرسية حول مَلَكاتِ الرُّوح.

ويبدو لنا أن وجهة النظر المُحدّدة هذه مَعمولٌ بها في علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك. وإذا نظرنا لهذَيْن العِلْمَيْن دون أفكارٍ مُسبَقَةٍ لَوَجَدنا أنهما غريبان عن الواقعيَّة الرُّوحيَّة، وكُلّ ما يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى "الحياة الداخلية"، كما أنهما مدفوعان في أَغْلَبِ الأحوال إلى التَّخَلُّص من المفاهيم التقليدية. فمن المهم جدًّا إذًا أن نُصعِّد من الظواهر إلى المبادئ لكي نتوصَّل إلى علم النفس العام، الذي يتولَّد من تطبيقٍ مُتكامِلٍ ودقيقٍ لوجهة نَظَرِنا هذه، وأن نستخلص علم النفس الصناعي والسيكوتكنيك.

وهذه هي المشكلة التي نعرضها عليكم للتفكير فيها، طارحين السؤالَيْن التَّالِيَيْن:

1. كيف يمكن استخلاصُ علم نَفْسٍ عامٍّ وَضعيٍّ من المُعطَياتِ الحالِيَةِ لِعِلْمِ النَّفس الصناعي والسيكوتكنيك، أيْ علم نفس عام غريبٍ تمامًا عن تعاليم الحياة الداخلية والاهتمامات المجرَّدَة لعلم النفس العام الحالي؟

2. ما هي مبادئ ومفاهيم علم النفس العام في المنظور المشار إليه؟

ويمكن اختصار هذَيْن السُّؤالَيْن إلى سُؤالٍ واحِدٍ، هو:

كيف يُمكِنُنا أن نَتصوَّر اليومَ عِلْمَ نَفْسٍ عامٍّ مُستَخْلَصٍ حقًّا -وبِدِقَّةٍ- من التجربة؟

"انتهى"



نبذة عن المؤلف

چورچ بوليتـزر، فيلسـوفٌ ماركـسيٌّ فرنـسي، لَمَـعَ اسـمُه في صفـوف الحـزب الشـيوعي الفرنـسي في العشرينـات، واشـتُهِرَ بكتابِـه عـن المادِّيَّـة الجدليَّـة، والـذي احتـوى المحـاضرات التـي كان يُلقيهـا في الجامعـة العُمَّاليـة لتعريـف الطَّبَقـة العاملـة الفرنسـية بتلـك الفلسـفة، واهتـمَّ دائمًـا بقضايـا علـم النفـس، وكتـب فيهـا موضوعـاتٍ مختلفـةً، وكانـت لـه وجهـة نظـر مُتميِّـزة.

وقـد عمـل في صفـوف المقاوَمَـة الفرنسـية ضـدَّ الاحتـلال الألمـاني أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة، وقَبَـضَ عليـه الألمـانُ، وأعدمـوه.





تَرجِعُ أهمِّيَّةُ هذا الكِتابِ إلى كَونِه إضافَةً نَظريَّةً لا يستطيع أيُّ مُشتَغِلٍ بعِلمِ النَّفس أنْ يُهمِلَها، ولَكِنْ -للأسف- لا نَجِدُ لها ذِكرًا في كُتُبِ عِلمِ النَّفسِ الأمريكيَّة والبريطانيَّة؛ وذَلِكَ لكَراهِيَةِ أصحابِ عِلمِ النَّفسِ الأمريكيِّ لِوجهاتِ النَّظَرِ الَّتي تَستَنِدُ إلى الفَلسَفةِ المادِّيَّةِ الجَدَليَّة؛ لأسبابٍ لا تَخْفَى على فِطنَةِ القارئ. وقد اعتَمَدَ المشتَغِلون بعِلمِ النَّفسِ في البِلادِ العَربيَّةِ على النَّقلِ من المصادِرِ الإنجليزيَّةِ والأمريكيَّةِ نقلًا مُباشِرًا، بحَيثُ يُمكِنُ القَولُ إنَّ ما يوجَدُ من عِلمِ نَفسٍ في البِلادِ العَربيَّة هو "عِلمُ نَفسِ الخَواجات"، أي: عِلمُ النَّفسِ الَّذي يتناوَلُ سُلوكَ ومُعتَقَداتِ ومَشاكِلَ المُجتمعاتِ الغربيَّة، والإنسانِ الغَربيِّ، والذي لا يَنطَبِقُ علينا؛ نَحنُ أبناءَ الوَطنِ العَربيِّ، إلَّا إذا كان هُناكَ ما يُسمَّى بالطَّبيعَةِ الإنسانيَّة أو النَّفسيَّةِ الواحِدَة للبَشَرِ جَميعًا، وهو افتراضٌ لم تَثبُت صِحَّتُه؛ فمُعظَمُ المُنَظِّرين في مجال الشَّخصيَّة يَعتَبِرون أنَّ الإنسانَ نِتاجُ بيئَتِه، وأنَّ عُنصُرَ الثَّقافة والتَّوصِيَة لـه أكبرُ الأثَرِ في تَكوينِ نَفسيَّة الإنسانِ وعَقلِه.




ISBN 978-977-313-882-0

